

النزعة الوطنية
في كتابات التاريخ الأندلسي
دراسة تحليلية لأهم الأسباب والعوامل



□ د. بدرية عبد العزيز بن عبد الله الصوهلي (*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

حب الوطن نزعة فطرية إيمانية في النفس البشرية، فمهما بلغ الإنسان من العلم والجاه والثراء إلا أن ذهنه دائماً يكون مربوطاً بوطنه فهو هاجسه الدائم وشعوره بأنه مصدر أمنه واستقراره وراحته، وقد بدا هذا الأمر واضحاً عند عدد كبير من الكتاب الأندلسيين حيث ظهرت النزعة الوطنية في الكتابة التاريخية، وشكلت سبباً رئيساً من أسباب التأليف والكتابة.

وتحت تأثير هذا السبب وهو النزعة الوطنية نهجت الكتابة التاريخية في الأندلس اتجاهات معينة لدى الكتاب وسوف تحاول هذه الدراسة التعرف على أسباب هذه النزعة، ومدى تأثيرها في توجيه الكتابة التاريخية هناك.

وقد جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهرس المراجع.

(*) أستاذ مساعد بكلية العلوم والدراسات الإنسانية، محافظة القويعة - جامعة شقراء.

المبحث الأول

أسباب هذه النزعة

المطلب الأول: الشعور بالغربة في بلاد الأندلس:

كان بُعد الأندلس عن مقر الخلافة الإسلامية بالشرق، فضلاً عن كون شبه الجزيرة الإيبيرية يفصلها حاجز مائي عن بلاد المسلمين، سبباً رئيساً في شعور المسلمين هناك بأنهم غرباء، وقد نما هذا الشعور في أعقاب الفتنة البربرية (٣٩٩هـ-^(١)) وسقوط الدولة الأموية هناك، وتغير الحال من حالة استقرار تحت مظلة دولة إسلامية واحدة مستقرة، إلى حالة فوضى في ظل تعدد طائفي يضم عدداً من الكيانات السياسية التي ظهرت بعد سقوط تلك الدولة^(٢)، حيث أدى ذلك إلى اختلاف تكوين المجتمع

(١) بدأت الفتنة البربرية في قرطبة إثر مقتل عبدالرحمن شنجول العامري على يد محمد بن هشام بن عبدالجبار (٣٩٩-٤٠٠هـ)، الذي ثار عليه وقتله في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ، ثم دخل قرطبة ولقب نفسه بالمهدي وأعلن وفاة هشام المؤيد، وقد اختلفت مسميات بعض المؤرخين لها، فسمّاها ابن حيان، وابن سعيد، وابن الخطيب، الفتنة البربرية، وسمّاها ابن عذاري فتنة ابن عبدالجبار. (انظر ابن بسام: أبو الحسن علي الشتريني، الذخيرة في محامد أهل الجزيرة، (تحقيق: إحسان عباس)، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٠م، ق ١، ح ١، ص ٤٤، ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، (تحقيق شوقي ضيف)، ط ٤، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م، ح ١، ص ١٥٦، ابن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله التلمساني، أعمال الإعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. (تحقيق: إلفي برونسال)، ط ١، القاهرة: دار الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م، ق ٢، ص ٩٨، ابن عذاري: أبو عبدالله محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وإلفي برونسال)، ط ٥، بيروت: دار الثقافة، ١٩٩٨م، ح ٣، ص ٧٦ وانظر التعريف بشنجول ص ٣٨-٥٠).

(٢) تعرضت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية إلى انثار عقدها وعزقها إلى ممالك صغيرة متازعة فيما بينها عُرفت بـدول الطوائف، وعُرف حكامها بـملوك الطوائف وأعلن حينما اجتمع أهل الحل والعقد وأعلنوا مبايعة أبي الحرم بن جهور ولغواء الخلافة الأموية بقرطبة في ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ وقد اختلفت تسمية هذا العصر لدى المؤرخين، فمنهم من سمّاه عصر ملوك الطوائف، أو أيام الفرق، أو الفتنة المبرية، وأطلق على مؤسسي هذه الدويلات ألقاب مثل: أمراء الفرقة الحملي، ومقتسمي الملك بعد الجماعة، وأمراء الفتنة، بينما لقب أولئك الملوك أنفسهم بألقاب متعددة تدل على سعة الملك وعظم السلطان، وهي في الحقيقة دليل واضح على واقعهم الضعيف للفرق. (انظر ابن بسام: الذخيرة ق ١، ح ١، ص ٨، ٢٠، ٣٥، ٦٣، ١١٣، ١١٤، ق ٤، ح ٧، ص ١١٢، ١١٧، ١١٨، ابن الكردوبس: أبو مروان بن عبد الملك بن قاسم، تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، (تحقيق: محمد مختار العبادي)، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١، ص ٧٨، المراكشي: عبدالواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (وضع حواشيه: خليل عمران المنصور)، ط ١، بيروت: دار-

الأندلسي وتعقيد تركيبته واختلاف الأنساب وظهور طوائف جنسية مع العرب من المولدين والبربر، فأصبح هناك خليط بشري مختلف الأصول والأنساب، يتركز على العنصرية والعصبية.

وأصبح من أهم الظواهر الواضحة في تلك الفترة شيوع الخوف وعدم الاستقرار واختلال المعايير واهتزاز الحدود الفارقة^(١)، مما أدى إلى الشعور بالغربة في الوطن والقلق تجاه المستقبل و التأثير العميق في نفسية شرائح المجتمع الأندلسي، وقد وجدت تلك التقلبات والحوادث صدى قوياً في الكتابة التاريخية والشعر الأندلسي منذ أن بدأ خطرهما واضحاً للعيان فكان متنفساً لأوجاعها وغربتها واستمرت تلك الكتابات حتى اللحظة الأخيرة من أيام الحكم الإسلامي في الأندلس^(٢).

وقد أدى هذا الشعور إلى ظهور نماذج عديدة من الكتابات التاريخية حيث تنوعت ما بين خطب، ووعظ، ورسائل وأشعار، تحكي ذلك الشعور بالغربة في البلاد،

الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ٥٤، ابن عذاري: لبيان المغرب، ج ٣، ص ١٥٣، ١٥٥، ١٩٤، ٢٥٤، وانظر الذيل الملحق ببيان المغرب، ج ٣، لمؤلف مجهول: مشتمل على نص أوراق من تاريخ متور الأول والآخر مجهول الاسم والمؤلف في أخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس، ص ٣١١، ابن الخطيب: أعمال الأعمال ق ٢، ص ١٤٤، ٢٤٤، ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد العبر وديوان المتنبأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م، المجلد الأول، ص ١٥٤٦، ابن الخطيب: أعمال الأعمال، ق ٢، ص ٢٢٤، ٢٢٦، وقد وصل عدد هذه الدويلات عند سعلون نصر الله حوالي ثلاث وعشرون دويلة، ينما أحصاها محمود مكي بنحو ستين دولة تغيرت حلودها إثر قيام دول منها وسقوط أخرى، ويبدو أن هذا العدد مبالغاً فيه (نصر الله: سعلون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ط ١، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٨م، ص ٢١١، مكي: محمود علي، تاريخ الأندلس السياسي، بيروت: نشر ضمن بحوث الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط ١، ١٩٩٨، ص ٩٩).

(١) الأنصاري محمد جابر، التفاعل الثقافي بين الشرق والغرب في آثار ابن سعيد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٢م، ص ٤٦،

(٢) عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت: دار الثقافة، ط ١، ١٩٦٠م، ص ١٧٧-١٩٢.

واستشعار التفجع والدعوة إلى الاستغاثة قصيدة أبي البقاء الرندي (ت ٦٨٤هـ)^(١) المشهورة التي غدت سجلاً واضحاً لهذا الشعور وقد جاء مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغرب بطيب العيش
هي الأيام كما شاهدتها دُولٌ
من سرّه زمن ساءت له
مثل هذا يذوب القلب من كمدٍ
وإن كان قي القلب إسلام

وسينية ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ)^(٢) التي تجسد استغاثة أهالي شرقي الأندلس بأمر تونس وفيها:

أدرك بخيلك، خيل الله أندلساً
إن السبيل إلى منجائها درساً
وهب لها من عزيز النصر ما التمت
فلم يزل عز النصر فيك ملتصماً
وحاش مما تُعانيه حشاشتها
فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً
للحادثات وأمسى جدها تعساً^(٤)

ويلحظ المتبع للكتابة التاريخية في الأندلس أن الإحساس بالغربة بدا واضحاً في كتابات أغلب المؤرخين ابتداءً من ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) وابن حيان (ت ٤٦٩هـ)، والحميدي (ت ٤٨٨هـ)، وابن بسام (ت ٥٤٢هـ) وابن الخطيب (٧٧٦هـ) والمقري (ت

(١) صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن شريف، أبو الطيب وأبو البقاء النفزي الرندي، خاتمة الأدباء بالأندلس، الفقيه الحافظ الأديب، (انظر ابن عبد الملك المراكشي: أبو عبدالله محمد بن محمد، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، بقية السفر الرابع، (تحقيق إحسان عباس)، بيروت: دار الثقافة، ص ١٣٦، الزركلي: عماد الدين، الأعلام، قاهوس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٤٤، ١٩٩٩م، ج ٣، ص ١٩٨).

(٢) المقري: أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن غصن الأندلس الرطب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (تحقيق: إحسان بن عباس)، بيروت: دار صادر، ط ١، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٨٦.

(٣) الإمام الحافظ الكاتب الناظم المؤلف أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي الأندلسي، حامل رؤية الإحسان، له عدة تأليف في التاريخ والأدب والتراجم. (انظر المقري: نفح الطيب، ج ٢، ص ٥٨٩).

(٤) المقري: نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٧-٤٦٠.

١٠٤١هـ)، وقد ساعد على نمو هذا الشعور أن ظروف الأندلس السياسية لم يتغير للأفضل إلا خلال فترات قليلة، وهكذا بقي لهذا الشعور النفسي مبرره وخصائصه النابعة من الظروف المضطربة التي تعيشها الأندلس، فأبقت فيها روح الولاء للديار وطناً وحضارة وأمناً واستقراراً، يوقد ذلك الرغبة الملحة للعودة إلى المجد السالف الذي تدثر بعباءة القوة والوحدة والذي استمر قرابة ثلاثة قرون من الزمن.

هكذا أفرز ذلك الشعور النفسي تلكم الكتابة التاريخية التي ظهر فيها التنبيه إلى ما هم فيه من خطر فضلاً عن الأمان بعودة مجد الإسلام هناك والوحدة والقوة . وفي (طوق الحمامة) لابن حزم نلمس الكثير من الكتابات التي هي بمثابة وثائق وأدلة تاريخية لهذا النوع، حيث كشف المؤلف من خلالها أبعاد الحياة الاجتماعية الأندلسية، في القرن الخامس الهجري وكيف كان الأمن مطلب شعر بفقدته الكُتّاب ومن ثم أنبروا للكتابة بحثاً عنه بين ترهاتهما، وملحاً يتنفس أوجاعهم و غريبتهم، وقد عانى ابن حزم نفسه تلك الغربة خاصة بعد أن ضاع منه مجد أسرته وأملأكها في قرطبة، وتقل في بلاد الأندلس باحثاً عن الأمن، ولعل أبلغ ما كتب في إحساسه بالغربة قوله في ذهاب الدولة الأموية: "وهلما تهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بنهاها"^(١).

وقد ربط ذلك الواقع المرير بملوك الطوائف حيث حملهم المسؤولية كما بدا هذا ظاهراً في كتاباته كما أظهر عدم رضاه عن العلماء والأدباء والكتاب الذين يتقربون منهم وبالرغم من الزخم الهائل من التراث التاريخي الذي قدمه لنا ابن حزم إلا أنه لم يتوسع في كتاباته التاريخية مقارنة بمعاصره ابن حيان (ت ٤٦٩هـ)^(٢)، إلا أن التنبيه

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٩.

(٢) ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، (تحقيق إحسان عباس)، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط ٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج ٢،

١٩٨٧م، ص ١٨.

إلى أهمية الوطن وقديسته جاء حضورها قوي في تلك الكتابات.

كما نجد في كتابات ابن سعيد (ت ٦٨٥هـ) وأشعاره الشعور بالغربة بارزاً حتى أثناء إقامته في وطنه ومن ذلك قوله:

أصبحت اعترض الوجوه ولا	ما بينها وجهاً لمن أدريه
عودي على بدئي ضلالاً بينهم	حتى كأني من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه	في عالم ليسوا له بشييه
إن عاد لي وطني اعترفت بحقه	إن التغرّب ضاع عمري

إن بروز ظاهرة الإحساس بالغربة وعدم الاستقرار في الوطن في الكتابة التاريخية والشعر الأندلسي بهذا الشكل للدليل واضح على أن المجتمع الأندلسي بكافة شرائحه يعاني من ذلك الشعور، ولم يكن أثر هذه الظاهرة على الكتابة والكتاب فحسب، بل انعكس على الحياة العامة حيث ظهرت الفتن و المعتقدات الضالة، كما بدا الفراغ السياسي وتقلب الحياة السياسية، وهنا ظهرت لنا كتابات متأثرة بتلك التقلبات تصور الوضع الاجتماعي القلق، وظهرت الوشايات في حياة الأفراد نتيجة عدم الإحساس بالاستقرار نحو ماجرى للعالم سهل بن مالك الذي غربه ابن هود عن وطنه غرناطة بسبب سعاية أهل الحسد، يقول الابن الأبار: «نالت الفتنة محنة بآخرة من عمره جرحها المنافسة والحسادة فغرب عن وطنه وأسكن مرسية»^(١).

هكذا أدى الإحساس بالغربة إلى اختلال الحياة العامة وتفكك العلاقات بين الناس، وبالرغم من تلك الحياة القلقة المضطربة إلا أن الكتاب لم يغفلوا عن الكتابة وتدوين ذلك الواقع المرير في كتاباتهم وأشعارهم ورسائلهم وخطبهم ونثرهم، متاولين كافة

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٢) التكملة لكتاب الصلة، (تحقيق عبدالسلام الهراس)، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م، ج ٤، ص ١٢٥-١٢٦.

ترجمة رقم ٣٦٥.

شرائح المجتمع من الأمراء والأغنياء، والفقراء، والعلماء والفقهاء، وهنا تظهر الصورة المشرفة لذلك الشعور، حيث أدت إلى ظهور الحس التاريخي والوعي الأدبي لدى الكتاب والأدباء بشكل مرهف، فهذا ابن حزم يؤكد ما ذكرناه وأن القلق في الأندلس والشعور بالغربة جعل بعض العلماء والكتاب وهو أحدهم يتحولون للهجرة إلى العراق «دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها»^(١)، ويشرح في إحدى قصائده كيف استبدت الأمانى القلقة بروحه التي لا ترضى حتى لو أُتيح لها أن ترحل إلى العراق فيقول:

أنا الشمس في جو العلوم	ولكن عيني أن مطلعني الغرب
ولو أنني من جانب الشرق	لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو أكناف العراق	ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن يُنزل الرحمن رحلي	فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو	وأطلب ما عنه تجئ به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة	وإن كساد العلم آفته القرب
فيا عجباً من غاب عنهم	له ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق	على أنه فيح مهامه سُهّب
وإن رجالاً ضيعوني لضيّع	وإن زماناً لم أتل خصبه جدب ^(٢)

ووصف قرطبة في ذلك الوقت بقوله: «فعاد نهارها تبعاً ليلها في الهدوء والاستيحاش»^(٣). سجل أولئك الكتاب والمؤرخون خوفهم وغربتهم وعدم الأمان

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٧٧، ضمن رسالة ابن حزم في ذكر فضل الأندلس.

(٢) المقرئ: نفح الطيب، ج ٢، ص ٨١.

(٣) طوق الحمامة ضمن رسائل ابن حزم، ج ١، ص ٣١٢، ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ١٠٧.

الذي بات يسيطر عليهم وقلقهم في كتاباتهم، وكان لتسلط الحكام والوزراء على أموال الناس ونهبها دون وجه حق بغرض الضرائب والأتاوات الكثيرة^(١) دوره الكبير في خوفهم وقلقهم.

وقد سجل ابن عذاري كيف بدا هذا الاحساس واضحاً بالغربة وعدم الأمان في الأندلس وذكر من أسباب ذلك استغلال بعض أراذل العامة وأصحاب الأهواء الفتنة البربرية التي اجتاحت الأندلس آنذاك ليحققوا مآربهم على حساب الأمن وأموال العامة، فقتل كثير من رجال العلم والفكر، وسُبيت النساء، وهُتكت الأعراض^(٢).

كما صور ابن بسام ذلك الواقع المضطرب الذي انعكس على الكتاب والأدباء والمفكرين واختلت فيه الموازين، والقيم والأخلاق، فأضحوا كالغرباء في وطنهم مؤيدين ما ذكره ابن حزم عن هذا، حيث أصبح «الأدب أقل من الوفاء، حاملة أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهاله، حسب المرء أن يسلم وفرة وإن ثلم قدره، وأن تكثر فضته وزهبه، وإن قل دينه وحسبه»^(٣).

وقد أصبح ذلك الواقع الموحع المليئ بالهموم والغربة هاجساً ملازماً للكتاب أينما حلوا أو رحلوا، فأمتلات صفحات مؤلفاتهم لتسجل واقعهم وتخلد حوادثه المفجعة لكل متصفح للتاريخ الأندلسي، ولم تزد هم تلك المحن إلا إبداعاً وتألقاً في كتاباتهم التي كتبوها في وقت الفتنة والفرقة وشعروا بألم الغربة في بلادهم، حيث دونوا ذلك بحرارة نزعتهم الوطنية واكتوائهم بلظى الغيرة على وطنهم، فهذه مقدمة الذخيرة ترصد ذلك الواقع حيث يقول مؤلفها: «وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن

(١) انظر ما سجله ابن بسام عن تسلط مبارك ومظفر العامريان على كثير من العامة حتى بدأوا في الرحلة من الأندلس إلى بلاد أخرى. (الذخيرة ق ٣، ج ١، ص ١٥ وما بعدها).

(٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ٨١.

(٣) الذخيرة ق ١، ج ١، ص ٢٥.

صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء، لانتباضي كان من شترين قاصية الغرب، مفلول الغرب، مروّع السرب»^(١).

ظل الاحساس بالغربة ملازم للأندلسيين حتى المراحل الأخيرة من الوجود الإسلامي هناك، وقد كان للتقلبات التي تكتظ بها أرضها دوراً كبيراً في ذلك الإحساس الملازم، ولعل من الأمثلة الدقيقة على ذلك تسمية أحد سلاطين الموحدين أرض الأندلس بـ «اليتيمة» كما سمي سكانها بالأيتام، فحينما حضرت الوفاة السلطان يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠-٥٩٥هـ)^(٢) أوصى من حوله بأهل الأندلس حيث قال بعد أن أطرق ساعة وعيناه تذرفان دموعاً: «أوصيكم بتقوى الله تعالى وبالأيتام واليتيمة، فقال له الشيخ أبو محمد عبدالواحد يا سيدنا يا أمير المؤمنين ومن الأيتام واليتيمة قال اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكانها المسلمون»^(٣).

وعلى الرغم من الآثار السلبية التي انبثقت عنها الإحساس بالغربة بين الكتاب إلا أن من أهم إنجازياته أن أخرج لنا كتابات تاريخية صادقة و صريحة تحكي تاريخاً معاصراً بكل حرارة وجرأة ووضوح.

(١) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٢٤-٢٥.

(٢) هو السلطان الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن ولد سنة ٥٥٤هـ، تولى السلطة بعد وفاة والده سنة ٥٨٠هـ، وكانت خلافته أربع عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة أيام، كان بليغ اللسان، حاضراً الجواب، شجاعاً مقداماً قاد المسلمين فب معركة الأرك سنة ٥٩١هـ. (انظر ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين - (تحقيق: إبراهيم الكتاني وآخرون، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨٥م، ص ١٧٠-١٧١)، ابن أبي زرع: علي بن عبدالله الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، (راجع عبد الوهاب منصور)، الرباط: المطبعة الملكية، ط ٢، ١٩٩٩م، ص ٢٨٣-٣٠٣).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب - قسم الموحدين - ص ٢٣١-٢٣٢.

المطلب الثاني: الشعور بالخطر النصراني:

ظل الشعور بالخطر النصراني هاجس ملازم لمسلمي الأندلس خاصة إبان الفترات المضطربة من مراحل الفتنة ولهذا فقد كان له أثر قوي في ظهور نزعات وطنية بعيدة الأثر في الكتابة التاريخية، فظهرت كتابات قيمة تؤرخ لتلك الفترة وتسطر سلبيات ذلك العصر وإيجابياته وتدعو للإصلاح ولم الفرقة، وشحذ الهمم وذكر محاسن الوطن الذي كان بالإمس أنموذجاً في الاستقرار والأمن والقوة، واليوم يرويه قد تحول إلى وطن فتنة واضطراب وضعف أمام الخطر النصراني المهدد بهم وبأرضهم، حتى أصبح وطن متعدد الكيانات والطوائف فتعددت ألقاب الخلافة فيه وتوزعت بين أمرائه ما جعل الشعراء والمفكرين والكتاب يصورون ذلك الواقع ويصفونه وصفاً دقيقاً فقال أحدهم:

ألقاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد^(١)

وقال آخر:

رجوناكم فما أنصفتمونا وأملناكم فخذلتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب وأنتم بالإشارة تفهمونا^(٢)

وبرزت كتابات ترصد حوادث تلك الفترة بعين ناقدة فاحصة لتلمس مسببات الاضطراب والانهيار في نظام الدولة بعد استقرارها، ولإبراز فضل الأندلس وطناً. وقد شاعت هذه الروح بين عدد من علماء وأدباء الأندلس، فبدت السمة الغالبة على هذا الجيل من المفكرين والكتاب هي الاعتداد بالقومية والوطن وقد أطلق عليهم «جيل الفتنة البربرية»^(٣).

(١) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص ١٤٤.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٧٠.

(٣) ابن حيان: أبو مروان بن خلف، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، (تحقيق محمود علي مكي)، القاهرة: دار التعاون للطباعة والنشر، ١٩٩٤م، ص ٩١.

وهناك من نسبهم إلى ما سماه بمدرسة «عصر الفتنة الأندلسية» حيث اتخذت هذه المدرسة من التاريخ درعاً للمقاومة، ورصدت بعين ناقدة تطور الأحداث واستلهمت روح الماضي والحاضر لتسجل لنا تاريخ حافل مليئ بالحوادث، وكانت نتاجاً طبيعياً للحوادث المضطربة التي عاشتها الأندلس في مرحلة الفتنة واستمرت من مطلع القرن الخامس حتى سنة ٤٢٢هـ^(١)، ومن بين مؤرخي وأدباء وكتاب هذه المدرسة التاريخية يقف أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٠٦هـ)^(٢) في مقدمة رواد تلك المدرسة.

(١) عويس: عبدالحليم، ابن حزم الأندلسي جهوده في البحث التاريخي والحضاري، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ٢، ٢٠٠١م، ص ١٨٥.

(٢) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، بن غالب المولود بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، فقيه وأديب، أصولي، محدث، حافظ، متكلم مؤرخ ونسابة تميز باهتماماته الواضحة والكبيرة، في مجالات مختلفة مثل الفقه والملل والنحل والأدب والشعر والنحو واللغة والطب والمنطق والفلسفة وغيرها، أخذ بالظاهر من النصوص، كانت له آراء خالفت فيها بعض فقهاء المالكية توفي سنة ٤٥٦هـ، انظر: (الحميدي: أبو محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، (تحقيق: روحية السويدي)، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٩٩٧، ص ٢٧٧-٢٧٩ رقم ٧٠٨، ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، (تحقيق: محمد علي شوابكة)، بيروت: دار عمار، ط ١، ١٩٨٣م، ص ٢٧٩-٢٨٢، ابن بسلام: الذخيرة ق ١، ج ١، ص ١٣٦-١٤٢، ابن بشكوال: أبو القاسم خلف، الصلة، (تحقيق: إبراهيم الأبياري)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٩م، ج ٢، ص ٦٠٥-٦٠٦، رقم ٨٩٨، الضبي: أحمد بن يحيى بن عميرة، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس. (تحقيق: روحية السويدي)، بيروت: دار الكتب العلمية ط ١، ١٩٩٧م، ص ٣٦٤-٣٦٦، ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. (تحقيق: يوسف ورميم طويل)، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٢٨٤-٢٨٩، الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد، سير أعلام النبلاء. (تحقيق: شبيب الأرناؤوط وآخرون)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٨، ١٩٩٢م، ج ١١، ١٩٩٨م، ج ١١، ص ١٨٨-١٩٥، المقرئ نفع الطيب، ج ٣، ص ١٥٨-١٨٢، حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د- ت، ج ٢، ص ١٩٧٥، البغدادي: إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د- ت، ج ٣، ص ٣١٩، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٥١م، ج ٥، ص ٦٩٠-٦٩١، كحالة: عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنفى الكتب العربية. (اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٣٩٣-٣٩٤.

عاصر ابن حزم الفتن التي عصفت بالدولة الأموية، وعاش الضعف الذي خيم على قادة المسلمين الذين استعانوا بالعدو النصراني بعضهم ضد بعض وهذا ما جعله يشعر بواجبه الوطني تجاه دينه وأمته ومحاولة إصلاح ذلك الواقع^(١)، لذا لم يذخر جهده في العمل على إصلاح واقع الدولة الأموية حينما أدرك ضعفها وأواخر عصرها واضطراب الأمور بالأندلس وتفرق الجماعة وتفكك الوحدة، فبذل مجهوداً جباراً في الميدان السياسي محاولاً لم الشّتات وجمع القلوب وانتشال الدولة الأموية المتداعية في الأندلس من كبوتها وإحيائها من جديد^(٢)، وكرس محصلته العلمية والفكرية في الكتابة والتأليف لينخاطب عقول وقلوب العامة للنهوض بالأمة الإسلامية وجبر كسرهما ومساندة ضعفها والتخلص من الخضوع للملوك الفتننة غير مبال بما يواجهه من عقبات ومصاعب من ذوي الأهواء منهم فكتب صرخته التاريخية المدوية التي تنتقد بشدة قهات أولئك الملوك على مصالحهم الذاتية وتناحرهم مشيراً إلى أن وجودهم حادثة تاريخية غير طبيعية لم يسبق حدوثها في التاريخ أدت إلى واقع سياسي ذو كيان ممزق فقال: «فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين، ويُخطب لهم بها في زمن واحد وهم: خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببشتر»^(٣).

(١) خليفة: عبدالكريم، ابن حزم حياته وأدبه، بيروت: الدار العربية للطباعة والنشر، ص ٥٢.

(٢) ابن حزم: طوق الحمامة ١٢٦، عويس: ابن حزم وجهوده، ص ٦٩.

(٣) نقت العروس في تواريخ الخلفاء، ضمن رسائل ابن حزم، ج ٢، ص ٩٧-٩٨.

ما دفع ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)^(١)، لقول:

مما يزهدي في أرض الأندلس سماعٌ مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد^(٢)

وتحت تأثير النزعة الوطنية المتسمة بالنقد وإظهار العيوب وتلمس أوجه النقص انتقد ابن حزم بلهجة التهكم واقع عصره فكتب: «اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياتهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، ويجمع أموال ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم»^(٣).

ومما كتبه عن الفتنة التي حصلت ببلاد الأندلس: «وأما ما سألتكم عنه من أمر هذه الفتنة وملايسة الناس بها مع من ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمرٌ امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهي فتنة سوء أهلك الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وساعٍ في الأرض بفساد، للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم

(١) أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني، شاعر وأديب ولد سنة ٣٩٠هـ في المسيلة وتقع اليوم في الجزائر، له عدة مؤلفات ورسائل ذات قيمة أدبية وتاريخية. (انظر: ابن رشيق: حسن بن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر وآدابه، (تحقيق: محمد الدين عبدالحميد)، القاهرة، ط ١، ١٩٣٤م، ج ١، ص ٨٩-٢٧٧، ج ٢، ص ٧٤-٢٧٢، ابن بسام: الذخيرة ق ٤، ج ٨، ص ٣٧٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٦٩، وانظر في تعريف المسيلة البكري: أبو عبدالله عبدالله بن عبدالعزيز، المسالك والممالك (تحقيق: أنور يان فان وأندري فيري)، قرطاج: بيت الحكمة، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٧٢٢-٧٢٣).

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ٧، ص ١٢١، المراكشي: المعجب، ص ٥٣، ابن سعيد: رآيات المبرزين وغايات المميزين، (تحقيق: محمد رضوان الداية) ط ١، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٧م، ص ٢٥٠، المقري: نفع الطبيب، ج ١، ص ٢١٤، ج ٤، ص ٢٥٥.

(٣) رسالة في الرد على ابن النغريلة اليهودي، ضمن رسائل ابن حزم، ج ٣، ص ٤١.

قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدأماً نفاذ أمرهم ونهيهم»^(١).

وفي موضع آخر كتب بكل حدة وصراحة عن ملوك الطوائف مشيراً إلى إذعائهم وخضوعهم وبحثهم عن مصالحهم وتخاذلهم مع العدو: «والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليهم، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملون أسارى إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حرم الأرض وحسرتهم معهم آمين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأدخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه»^(٢).

هكذا كان ابن حزم بنزعتة الوطنية وقوميته كثيراً ما يعبر عن كراهيته للملوك الطوائف ويرى أنهم كانوا سبباً في انحدار الدولة الإسلامية في هذا الوطن الغالي فبالإضافة إلى التنبيه إلى هذا الخطر فقد كان لا يتردد في الدعاء عليهم.

ولم تهدأ حرارة قلم ابن حزم وكتابته التاريخية عند ملوك الطوائف وتمزق الكيانات السياسية الداخلية وتردي الأوضاع الاجتماعية والخلقية فحسب، بل امتد قلمه لدم تحاذل الفقهاء مع أولئك الملوك وتوانيهم عن أداء رسالتهم فكتب مادته التاريخية هنا بأسلوب لا ذع ولهجة ساخرة منها: «من يزينون لأولئك الملوك سوء أعمالهم ويررون لهم تخاذلهم مع العدو وعدم تصديهم لهم بالنصح والتوجيه تقريباً منهم وموالاة لهم، لذا سماهم بالفساق والمتسبون إلى الفقه، ووصفهم بأشنع الصفات وفي ذلك يقول: «فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على

(١) رسالة التلخيص لوجه التلخيص، ضمن رسائل ابن حزم، ج ٣، ص ١٧٣.

(٢) السابق، ص ١٧٦.

قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»^(١).

ولم يكن هذا الحرص من لدن ابن حزم ناتج عن تعصب أعمى بل إنه كان ذا اتجاه سياسي بعيد عن هذا النوع من التعصب، حيث كان يُعنى بالاعتداد بالجماعة ونبذ الفرقة والطائفية، وهو ما لخصه في إحدى رسائله بقوله: «هي فتنة سوء أهلك الأديان إلا من وقى الله تعالى... فالمخلص لنا هو الإمساك للألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذم جميعهم، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعته، وما أدري كيف هذا، فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غلبوا»^(٢).

هذا ونلاحظ نضج هذا اللون من الكتابة التاريخية الأندلسية بشكل بارز وواضح في قلم: ابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩هـ)^(٣)، نشأ نشأة علمية وكان كثير الاطلاع والبحث، فصيحاً، صادقاً، أميناً، بليغاً، ولذلك استحق أن يلقبه ابن بشكوال بـ صاحب لواء التاريخ في الأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له^(٤)، له مؤلف: «المقتبس من أنباء أهل الأندلس»، و «والميتين»^(٥) وغيرهما. تميزت كتاباته بالنقد العلمي اللاذع لواقع عصره، وبروز شخصيته القومية المتشربة بحب وطنه والتي تظهر علينا بين فينة وأخرى

(١) السابق، ص ١٧٣.

(٢) نفسه، ص ١٧٣.

(٣) المؤرخ العلامة حيان بن خلف بن حسين بن حيان، يكنى أبا مروان المولود بقرطبة سنة ٣٧٧هـ، والمتوفى بها سنة ٤٦٩هـ (انظر ابن حيان: المقتبس، (تحقيق مكى)، ص ١٦-٢١، الحميدي: الجذوة، ص ٣١٢، ابن بسم: الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٤٦٣-٤٦٤، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. (تحقيق: محمد عبدالله عثمان)، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٤، ٢٠٠١م، ج ١، ص ٤، ٩٢، ٤٤٤، أعمال الاعلام، ق ٢، ص ٨٤، المقرئ: نفع الطيب، ج ٣، ص ١٨١).

(٤) ابن بشكوال: الصلة ص ٢٤٧-٢٤٨ رقم ٣٤٩.

(٥) الحميدي: الجذوة، ٣١٢، ابن سعيد: المغرب ج ١، ص ١١٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٨٧، قم ٢١٠.

خلال صفحات كتاباته وتلفت نظر القارئ في تفصيلاتها الدقيقة والواسعة ، ، وحيه لوطنه، واعترازه بعقيدته وقوميته، ونظرته دائماً إلى بلاد الأندلس بأنها لا بد أن تصدر العالم الإسلامي.

عاش ابن حيان في عصر ملوك الطوائف، وعاش معاناة البلاد والعباد في تلك الفترة، لذا اجتهد في أن يساهم في إصلاح الوضع بقلمه، فبدأ يرصد مواطن الخلل وتتبعها وانتقادها في نظرة شاملة، حيث ظهرت في كتاباته ملاحظات وتعليقات تكشف عن العيوب الدفينة في نظام الدولة الأندلسية والتي أدت شيئاً فشيئاً إلى زعزعة الدولة ثم تصدعها وتفككها، وحمل الجميع من العامة والخاصة والقادة مسؤولية ما وقع على بلادهم وسمى ذلك العصر بعصر الفتنة المبيرة^(١)، والفتنة البربرية الشنعاء المدممة، المفرقة للجماعة، الهادمة للملكة المؤتلة^(٢) وسماها أيضاً الفتنة الغماء^(٣).

وقد حركت النزعة الوطنية لدى ابن حيان مكان غيرة وثورته على بلاده ولم تقف قلة الأدوات وضعف الامكانيات التي يملكها حائلاً دون وصول صوته للعامة والخاصة، فلم يكن يملك مثل غيره من العلماء والفقهاء المشهورين بالأندلس منبراً خطائياً أو حلقات تعليمية، أو مجالاً للفتوى والتأليف، كالم يكن ذا منصب لينطلق من خلاله لتبليغ رسالته وتحقيق أهدافه^(٤)، ولهذا كانت الكتابة التاريخية هي الوسيلة الوحيدة التي حقق من خلالها نظرته وأمله في إصلاح واقع الأمة من خلال ما يراه، فاجتهد لفترة طويلة في جمع الأخبار قبل الفتنة وبعدها ومعرفة مسبباتها وسياسة الملوك

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٤٥٥، ابن عذاري البيان المغرب، ح ٣، ص ١٩٤، المقرئ: نفع الطيب، ج ٤، ص ٤٥٢.

(٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٤٤٣، ٤٤٤.

(٣) المصدر السابق، ق ١، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٤) السحياني: حمد بن صالح، جهود مفكري الأندلس الإصلاحية في عصر الطوائف، الرياض: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط ١، ١٤٢٤هـ، ص ١٠٨.

وحروهم ومحن العلماء، للوقوف على مواطن الداء ومحاولة الإصلاح.

يقول ابن حيان في ذلك: «إني إمرؤ يسرت لطلب هذا الخير، واقتفاء هذا الأثر، أحرس شاردة، وأقيد نافره، وأبيت بأبوابه، وأنصب لطلابه، فشغلت به دهرًا، وفجرت منه نهرًا.. أقص أنباءه، وأضرب أمثاله، وأحصي وقائعه، واحترز مواعظه.... وأنساني المدة إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدممة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤتلة، المغربية الشأو وعلى جميع ما مضى من الفتن الإسلامية، ففاضت أهوالها تعاظماً أدلني عن تقيدها، ووهني ألاّ مخلص منها، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها»^(١).

عاش ابن حيان أيام تلك الفتنة بكل حوادثها ولم يكتف بسرد تفصيلاتها التي عاشها، بل نجد نزعته الوطنية تلح عليه فينقب عما قبل الفتنة وظروفها ويجمع شتات خبرها ويلم خيوطها كاملة، ليظهر الصورة واضحة أمام القارئ مهما كانت جرأة الطرح وقوة العبارة بقصد الإصلاح والتماس العظة والعبرة، وتبدو جهوده واضحة رغم شح موارده حيث يبدو أن خوف بعض الكتاب والعلماء من رواية حوادث وأخبار معاصرة من أن ترج بهم تلك الروايات والأخبار في مغبة المجهول جعلهم يتحفظون عن إمداده بما يشبع نهم نزعته الوطنية يقول في ذلك: «استأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها — يقصد الفتنة — فأنعمتُ البحث عن ذلك عند من بقي يومئذٍ من أهل العلم والأدب لدينا، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له، لزهدي من قبلنا قديماً وحديثاً في هذا الفن، ونقيهم له عن أنواع العلم، وأنثيت خائباً خجلاً ألوم نفسي على التقصير، وأحدوها بالأمل، وأعذر من قال: «هممت ولم أفعل»؛ وشرعت في التقييد غب التفنيد، غير مُخلٍّ به، ووصلت القول

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٤٤٣.

فيما فاتني قبل من ذكر انبعاث تلك الفتنة، وأخبار ملوكها، ومشهور حروبها، مما أصبت به عندي تذكره، أو أخذته عن ثقة، أو وصلتني به مشاهدة، أو حاشته إليّ مذاكرة، حتى نظمت أخبارها إلى وقتي مكتملة»^(١).

ووضح ابن حيان منهجه الصريح الواضح بأنه أورد خبر الفتنة دون تنميق أو محاباة أو مداراة لأحد من ملوك أو علماء أو قادة، وسمى سياسة ملوك الطوائف بالسياسة المنفرة، وممالكهم بالمضطربة، يقول فيما كتبه من أخبار الفتنة وتسجيل وقائع عصره: «وجئت بها على وجوهها، وأوردتها على سبوغها، ناشراً مطاويها، ومعلنناً بخوافيها، غير مُحابٍ ولا حائف في الصدق عليها»^(٢).

وقد عزا ابن حيان أسباب ضعف المسلمين ومصائبهم الجلل، وعدم صمودهم في وجه الخطر النصراني، وتمكن العدو منهم، وسقوط أهم المدن الأندلسية في قبضة العدو إلى فساد أخلاق الأمراء والناس وخبث ضمائرهم، وجهلهم وزيفهم، وارتكاسهم في الذنوب وغرقهم في الغيوب يعللون أنفسهم بالباطل، ووضح أن من أدلة جهلهم اغترارهم بزمائهم، وبعدهم عن طاعة خالقهم، وذوولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم حتى وصل عدوهم إلى ديارهم، يقطع كل يوم جزءاً منهم، ولام الأمراء، وحمل العامة مسؤولية ما وصل إليه ملوك الطوائف من لأمبالاة انعكست على المجتمع الإسلامي هناك بعدم نصحتهم لهم ومجاملتهم وركوبهم إلى ملوك الطوائف كعادتهم من استبعاد الوجل، والاغترار بالأمل، والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل^(٣)، «وقد بخلنا عليهم

(١) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ٢، ص ٤٤٤.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ٥، ص ١٣٧.

بالدعاء بخلنا بالغناء»^(١).

ولام الفقهاء والعلماء بسبب صمتهم وعدم دعودتهم للوحدة والجهاد، وبذل النصح للأمرء والناس والحض على الغيرة، للإسلام والمسلمين حيث لزموا الصمت فكانوا: «صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم... فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها»^(٢)، وتعجب من الوضع المزري الذي وصل إليه ملوك الطوائف وكيف كانت ردود أفعالهم وتحركاتهم إذا المصاب الجلل في بربرشت فيقول في لهجة لاذعة بدافع وطني: «لقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمرء، إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء في بربرشت»^(٣) إلا الفرع إلى حفر الخنادق وتعلية الأسوار، وشد الأركان، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوء السوء من إلقاءهم يومئذ بأيديهم إليهم»^(٤).

اجتهد ابن حيان في إبراز الواقع المرير للعيان ونقل إلينا أخباراً لحوادث حية لا زال يعيش واقعها وهو يكتبها بحرارة سطوره ومرارة حوادثه بكل صراحة دون زيف أو تملق أو تنميق فلم يذخر وسيلة يرى أنها تمده بالمادة التي تثري كتاباته وتعطيها الصورة الحقيقية المكتملة فكان يكتاب المرابطين في الثغور لمعرفة بعض الأخبار منهم^(٥).

ويقول ابن حيان ناقماً على أولئك الملوك ركونهم للدعة وتعطيل الجهاد: «ومما وقع من التعجب منهم أنه أخذ من البياض المقتولين من أهل طليلطة في تلك الوقعة ألف غفارة، من لبوس أهل الرفاهية أيام المباهاة، ركبوا بها إلى الطاغية - قصمه الله - كأثمهم

(١) المصدر السابق ق ٣، ج ٥، ص ١٤٣-١٤٤، ابن عذاري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق ق ٣، ج ٥، ص ١٣٨.

(٣) يقصد بها حادثة بربرشت سنة ٤٥٦هـ والتي قتل النصارى فيها عدد كبير من المسمين.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ٥، ص ١٣٨.

(٥) المصدر السابق نفس الجزء ص ١٤٢.

وفد سلم يشهدون المعاهدة، فنبذوا السلاح وكلفوا بالتوقيع ونافسوا في النشب، وعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبابة المتفانين من أهل موسطة الأندلس، ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة،... فتباً لهم تباً!! فتضعض ثغرم بتوالي هذه النكبات، ولحقت المسلمين بهم مضايق يكره سماعها، حتى عم تلك الثغور الجلاء وتوزع المسلمين البلاد، وخرت ديارهم، وبادت آثارهم»^(١).

وكان من الواضح أن أبرز معالم وطنية ابن حيان وتفكيره السياسي هو الاعتداد بالجماعة والوحدة، وكثيراً ما كان يكتب ويتغنى بوحدة الأندلس التي اكتملت في ظل خلافة بني أمية ويظهر فيما يكتب إيمانه بقضية الوحدة الأندلسية، وبالمرارة العميقة التي ولدها في نفسه انفصام عرى هذه الوحدة على عهد ملوك الطوائف، وقد كانت هذه العقيدة هي التي أملت عليه ما سجله في كتاباته التاريخية عن أمراء بني أمية وخلفائهم من صفحات مشبعة بالتقدير والاعجاب والثناء، رغم ذلك لم يمنعه إعجابه بهم من تقديم في كتاباته التاريخية وتبع عيوبهم متى ما استحقوا ذلك^(٢).

أبو الحسن بن بسام الشنتريني^(٣) (ت: ٥٤٢هـ) المشهور بكتابه «الذخيرة في

(١) المصدر السابق ق ٣، ج ٥، ص ٦٤١.

(٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، ص ٩٣-٩٥.

(٣) نسبة إلى مدينة شترين التي ولد فيها مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وهي إحدى مدن غربي الأندلس، تقع على سفح جبل عال، وهي مدينة برتغالية تقع اليوم في البرتغال ويطلق عليها Santarem وتقع على الشاطئ الأيمن من نهر تاجو أو تاجو Tajo، وهي مفتاح واديه، تقع إلى الشمال الشرقي من لشبونة Lisbon، على بعد ٨٧ كلم منها، اسمها مشتق من سانتا إيرين، أي القديسة أرائة، كانت أيام المسلمين مدينة زاهرة خرج منها عدة علماء في الأدب واللغة والتاريخ، وإليها يُنسب ابن بسام الشنتريني (انظر ابن حيان: المقتبس، ج ٥، اعتنى بنشره شالميتا، مدريد: المعهد الأسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩م، ص ٤٢٥، الإدريسي: أبو عبدالله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٩م، ج ٢، ص ٥٥٠، الغرناطي: محمد عبدالرحيم القيسي، المغرب عن بعض عجائب المغرب، بيروت: دار الكلب العلمية، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٥، الحموي: معجم البلدان، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ط ٣، ١٩٨٠م، ج ٣، ص ٣٦٧، الحميري: محمد بن عبدالمنعم، الروض المطار في خبر الأقطار، (تحقيق: إحسان عباس)، بيروت: مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ٣٤٧، الفاسي: محمد، الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البيئة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية، ع ٣، س ١، محرم ١٣٨٢م، يولييه ١٩٦٢، ص ٣٥).

محاسن أهل الجزيرة»، وقد عرف عنه نزعته الوطنية القوية، عاش ابن بسام مرحلة طفولته وشبابه في مدينة شترين التي كانت تتبع لحكم بني الأفطس^(١)، وشهد سقوطها في أيدي النصارى، ثم توجه إثر ذلك إلى مملكة إشبيلية، التابعة آنذاك لحكم بني عباد حيث عاش في ظلها، وشهد مرحلة ضعفها وسقوطها مع بقية دول الطوائف على أيدي المرابطين (٤٥١-٥٤١هـ)^(٢)، الذين عاصر قيام دولتهم وشهد مرحلة ضعفها، والفتنة التي مرت بها دولتهم أثناء قيام دولة الموحيدين (٥١٥-٦٦٨هـ)^(٣) على

(١) تشمل حدود مملكة بني الأفطس غرب مملكة طليطلة عند نهر يانة غرباً حتى المحيط الأطلسي، لتمتد إلى أراضي البرتغال كلها تقريباً حتى مدينة باجة في الجنوب. (انظر عنان: محمد عبدالله، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، العصر الثاني، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٤، ١٩٩٧م، ص ٨٢-٩٣).

(٢) يعتبر يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولتهم بالمغرب، وعاصمتهم مراكش، سمو بالمرابطين للملازمة لهم الثغور والمرابطة فيها للجهاد، كما سمو بالملتزمين لاستخدامهم الثام. (انظر: في تفصيلات ذلك الجنابي: مصطفى بن حسن، الحافل الوسيط والعليم الزاخر اخطط في أحوال الأوائل الأواخر، مخطوط، الرباط: الخزنة الحسنية، رقم ١٥٠٧، ورقة ٤٦٣-٤٦٤، الزياني: أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم، الترجمان العرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رقم ٨٢٨٩، ورقة ٢٨٣، مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار والمراكشية، (تحقيق: سهيل زكار وعبدالقادر زمامة)، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط ١، ١٩٧٩م، ص ١٧-٢٧، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٥١-٢١٦، الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (تحقيق: جعفر ومحمد العامري)، الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣-٣٠).

(٣) قامت دولة الموحيدين في الأندلس والمغرب وأصبحت من أقوى الدول الإسلامية، ويعتبر زعيمهم الأول محمد بن عبدالله بن تومرت (٥٢٤هـ)، وخلفه تلميذه عبدالمؤمن بن علي وواصل محاربة المرابطين التي بدأها شيخه، فتم له القضاء عليهم ودخل عاصمتهم مراكش سنة ٥٤١هـ حيث أعلن قيام دولة الموحيدين. (انظر المراكشي: المعجب، ص ١٢٦-١٤٥، البيذقي: أبوبكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحيدين، الرباط: دار المنصور للطباعة، ١٩٧١م، ص ١٣-٩٦، ابن القطان: أبو علي حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك التاجي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان (تحقيق: محمود مكي)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٠م، انظر ص ٦١، ٧٢، ٧٦، ٨٧، ١٠٠، ١٢٣-١٤٢، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ٢١٧-٣٤٤، السحياني: النظم الحربية في دولة الموحيدين بالمغرب والأندلس (٥١٥-٦٦٨هـ/١١٢١-١٢٢٩م)، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط ١، ١٤٢٤هـ، ص ٥، وما بعدها).

أنقاضها، وقد أثر ذلك الوضع السياسي الذي عاشه ابن بسام على تكوين شخصيته العلمية وبالتالي انعكس على كتاباته.

وكان لابن بسام جهود و مشاركة بقلمه وفكره في إصلاح الوضع الذي آلت إليه البلاد في ظل حكم ملوك الطوائف، بدافع نزعته الوطنية وحبه وغيته على البلاد، لذا لم تخلُ كتاباته التاريخية من الصرامة والجرأة، ووصف ذلك الواقع في جزيرة الأندلس آنذاك بقوله: «آفاق هذه الجزيرة المروع سرها، الذلول بتناصر غوغائها وتخاذل أمرائها يومئذٍ صعبها، من طواغيت الروم المحيطين بجهاتها...»^(١).

كما كان لابن بسام وقفات كثيرة انتقد فيها بحده موالاة ملوك الطوائف للنصارى، وتشاحنهم فيما بينهم ولم يكف هؤلاء الملوك بالتخاذل بل أصبحوا يرهقون العمال بالعمل واستعجال قبض بعض الأموال كي تدفع للعدو، وأورد بعض الرقع التي تدم ملوك الطوائف والقطع الثرية التي خوطب بها العمال في هذا الشأن مصوراً استسلامهم للعدو وموضحاً أسباب سيطرة النصارى عليهم وما ورد لديه: «لأن أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يداخلون طوائف الروم، ويكثري كل واحد منهم عسكرياً بجملة من المال يُخرجه إلى بلد كاشحة، ويسلطه على معانده ممن يجاوره من البلاد... حسداً له وطمعاً في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة... إذ كان كل واحد منهم يختفي عن قرنه بقصره، ويطيل الهزل لسيف غيره، ويسله على جاره، حتى غدا ذلك السيف مسلولاً عليه»^(٢).

ويعتبر ابن بسام عين شاهده وراصده لمجريات حوادث العصر الذي عاشه واكتوى بناره، لذا ألحت عليه نزعته الوطنية أن يكتب بقلم يتحسر وقلب يعتصر على واقع ملوك الفرقة والتناحر كما سماهم في معظم كتاباته، فرسم لنا صورة ناطقة معبرة عما

(١) الذخيرة، ق ٣، ج ٦، ص ٦٤٤-٦٤٥.

(٢) المصدر السابق، ق ٢، ج ٣، ص ١٩٨.

يدور على أرض تلك البلاد من فتن وتخاذل، وفاضت قريحته لتحكي مجريات ما حل بالمسلمين من نكبات، وكيف اشتدت وطأة النصارى على المسلمين، وبدأت أهم المدن والحصون الإسلامية تخرج من تحت أيديهم، ففقدوا بلنسية، ثم سقطت طليطلة، وتوالى سقوط الحصون، بفعل أولئك الملوك والتجاء أغلبهم للتحالف ضد بعضهم البعض مع النصارى، وبالغوا في دفع الأتاوة لهم وأرغموا في أحضانهم وفي ذلك يقول: «وكانت طوائف الروم مدة ملوك الطوائف بأفقتنا قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلا طفوهم بالاحتيا، واستنزولهم بالأموال، فلم يزل دأهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلط والعناد، حتى استصفوا الطريق والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن التَّفَاد، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة إلى ما يتبعها من هديات ونفقات»^(١).

هذا وقد وجه ابن بسام لومه الشديد وتصديه الصريح للشعراء والأدباء الذين داهنوا ملوك الطوائف وزينوا لهم سوء عملهم وكانوا إلى جانبهم يهونون عليهم ويصورون لهم الهزيمة والضعف نصراً وقوة، وذكر بكل جرأة مثلاً على أولئك الشعراء وسماهم بأسمائهم دون خوف أو وجل، في نزعة وطنية واضحة بدافع الإصلاح والجرأة في قول الحق دون تنميق، ساخطاً على واقع أولئك الملوك ومن يداينهم ويزين لهم الموالة والخضوع ودفع الأتاوات من الشعراء فقال: وشعر العصر شاهد بالأمر كقول حسان بن المصيصي^(٢) يمدح المعتمد ويهون عليه تلك الأتاوات، من جملة

(١) المصدر السابق، ق ٢، ج ٣، ص ١٩٤.

(٢) أبو الوليد حسان بن المصيصي من مدينة شلب، عاش ق ٥، هـ، تقرب من المعتمد بن عباد، اسكنه المأمون بن المعتمد بن عباد عندما تولى على قرطبة. (ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ٣، ص ٣٢٧-٣٤٠، الأصفهاني: أبو عبد الله عماد الدين محمد، خريدة القصر، تحقيق: محمد العروسي المطوي وآخرون) الدار التونسية للنشر، ط ٢، ١٩٨٦ م، ج ٢، ص ١٩١-، ج ٣، ص ٥٨٨، ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٣٨٥، الرايات ص ٩٠).

آيات:

ولم تطو دون المسلمين ذخيرةً تُهين كرام المنفسات لتكرما
تَحِيلُ في فكِّ الأسارى تعاقد كفاراً لتطلق مسلما
وما كنت ممن شحَّ بالمال فتكنز ديناراً وتركز
فترسله للصُّفر أصفر عسجداً وإن خالفوا أرسلت أبيض
كما انتقد بحده وتصدى بجرأة لشعر أبي بكر الداني^(١)، الذي قال في المعتمد
مداهنا:

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتخدعُ
تُئيلهم نعماً في طيها نقمٌ سيستضرُّ بها من كان
وقلّ ما تسلم الأجسام من عرض إذا توالى عليها الريُّ والشبُعُ
لا يخبط الناسُ عشوا عند مشكلة فأنت أدرى بما تأتي وما تدعُ
فكتب ابن بسام: «هذا مدح غرور، وشاهد زور، وملقٌ مُعْتَفٍ سائل، وخديعةُ
طالب نائل، وهيهات!! بل حلت الفاقة بعد بجماعتهم حين أيقن النصارى بضعف
المن وقويت أطماعهم بافتتاح المدن، واضطربت في كل جهة نارهم، ورويت من
دماء المسلمين أستتهم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنما بأيديهم سبايا،

(١) أبو بكر محمد بن عيسى الداني (ت ٥٠٧هـ) المعروف بابن اللبابة نسبة إلى أمه التي كانت تتبع الدين، وهو شاعر المعتمد بن عباد، له نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية، صنفه في بني عباد وأيامهم وأخبارهم والبقاء على على اندثار نظامهم، وقد جمع شعره أحد الكتاب المحدثون وهو مجيد السعيد في ديوان خاص ونشره. (انظر في ترجمته ابن خاقان: قلائد العقبان ومحاسن الأعيان. تحقيق حسين خريوش)، عمان: مكتبة المنار، ط ٢، ١٩٨٩م، ص ٧٧٦، ابن بسام: الذخيرة ج ٣، ج ٦، ص ٥٠٠-٥٢٨، العماد الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٠٧، الضبي: بغية المستمسك ص ٩٣، رقم ٢١٣، المراكشي: المعجب ص ١٠٤، ابن سعيد: المغرب ج ٢، ص ٤٠٩، الكشي: محمد بن شاكر بن أحمد، فوات الوفيات. (تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود)، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٤٢٧، المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ٦١٢، ج ٤، ص ٢١٥، وانظر (٢٥٦).

يحتننهم بأنواع الحن والبلايا»^(١).

وواصل ابن بسام رصده ومتابعته لهؤلاء الشعراء الذين وصفهم بالمخادعين والموهين لحقيقة الأمور لدرجة أنه تعجب واستنكر أن ينظم بعضهم القصائد في تحسين الفرار من العدو، فيقول: «ثم تتابع الشعراء في خدع العقول، بالتمويه المستحيل، فمن محسن برز، ومن مقصر عجز حتى قال الحارث بن هشام قطعه في حسن الفرار، التي صارت نهاية في العجب، وشهادة في تحسين نتائج الحرب وهي قوله:

الله يعلم ما تركت قتالهم	حتى علوا فرسي بأشقر مُزبد
ونشيت ربح الموت من تلقائهم	في مأزق والخيل لم تبدد
وعلمت أني إن أقاتل واحداً	أقتل، ولا يضرر عدوي
فصدت عنهم والأحبة فيهم	طمعاً لهم بعقاب يوم

وسمعتها بعض العجم فقال: قاتلكم الله معشر العرب، حسنتم كل شيء حتى الفرار،... إلى ما لا يحصى عدده، ولا يستقصى أمد»^(٢).

والمتبع لما كتبه ابن بسام عن واقع عصره يدرك أنه كتب بدافع نزعة الوطنية وسجل حوادث مريعة يستشف من خلالها القارئ الكثير من الحقائق التي أدت إلى هذا الضعف والانحلال والتفكك الذي وصل إليه ملوك الطوائف، وسيتمكن قارئ كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» أيضاً من الوقوف على مسببات تعطيل الجهاد في بلاد الأندلس وثوراتها وتحولها من أرض مقاومة ساهمت في نشر الإسلام إلى أرض فتن ودسائس وثورات وقلاقل وحن ثم تفكك عروة عروة.

هكذا قدّم ابن بسام مادة تاريخية مترابطة حول حوادث عصره التي عاشها وبدت

(١) الذخيرة، ق ٢، ج ٣، ص ١٩٥.

(٢) المصدر السابق ق ٢، ج ٣، ص ١٩٦-١٩٧.

نزعته الوطنية واضحة في كتاباته، محاولاً أن يتلمس من خلالها مواطن الخلل في منهج إصلاحي وقدم مادة تاريخية تحوي شروحاً مفصلة حول بعض الحوادث الجسام التي مرت بها تلك البلاد وسجلها بنظرته الشاملة الواسعة.

ولم يكن هذا الشعور خاص بعصر الطوائف، بل إننا نلمس من كتابات معظم كتاب ومؤرخي هذه الفترة المتقلبة إلى عصر نهاية الوجود الإسلامي هناك شعورهم بالقلق والخوف من الخطر النصراني لدرجة إحساسهم بتملك العدو لأرضهم في أي لحظة خلال فترات الضعف الأخيرة، وهذا ما يتضح جلياً في وصية لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) لأولاده بعدم تملك العقار في الأندلس لأنها عرضه للخطر النصراني المحدث بهم والتريص بأرضهم فيقول لأبنائه: «ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضه للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقاً عن الانتقال، أمام التوب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى...»^(١)، ما كتبه ابن الخطيب هنا ما هو إلا دلالة واضحة على وضع البلاد المتقلب، والخوف الخطر النصراني المترصص.

هكذا أصبح الخطر النصراني هاجس الخاصة والعامة، ففاضت قريحة الكتاب لتسجل ذلك وتدعو إلى الجهاد لمواجهة الخطر النصراني، وكما رأينا كان منهم من نظم القصائد، ومنهم من كتب الرسائل، ومنهم من كتب قطعاً نثرية فضحت المتقاعسين والخونة من الخاصة والعامة وبعض العلماء الذين سعوا لمصالحهم الذاتية دون مصلحة المسلمين العامة^(٢).

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٧، ص ٤٠٤.

(٢) انظر الحديث عن ذلك بشكل مفصل في السحياني: جهود مفكري الأندلس، ص ١٢٣ إلى آخر الكتاب.

سجلت لنا تلك الكتابات التاريخية مقولة ابن عباد الشهيرة: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»^(١)، حينما شعر بالخطر النصراني الذي تحول إلى واقع لا مفر منه، وهو يقصد أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتاله.

وهذا السلطان يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ - ٥٩٥هـ) يحذر من حوله ممن شهد احتضاره قبل موته من الخطر النصراني المترص ببلاد الأندلس ويحث على تشييد الأسوار وحماية الثغور وتجهيز الجند فيقول: «إياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوفير رعيته، ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى وحسن نظركم فيها فانظروا أمن المسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها»^(٢).

وتفيض الكتابات التاريخية بنماذج كثيرة تجسد الخوف من الخطر النصراني المحدث ببلاد الأندلس، والتي لو تتبعناها لطالت هذه الصفحات، إنما نحسب أن في النماذج السابقة ما يفي بالغرض.

* * *

(١) والمقري: نفح الطيب، ج ٤، ص ٥٣٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب - قسم الموحدين - ص ٢٣٢.

المبحث الثاني

وتحتة مطلبان:

المطلب الأول: لمز بعض المشاركة للأندلسيين

كثيراً ما نلاحظ في التراث الأندلسي الذي خلفه لنا علماء الأندلس وجود بعض المؤلفات التي تحوي شعراً أو نثراً يشير إلى وجود بوادر لمز بعض المشاركة للمغاربة، واستنقاصهم، وما يُفيد أن المشاركة أصحاب فضل على المغاربة يعلمهم وحضارتهم واعتزازهم بوطن المشرق لأنه بزعمهم أكثر أصالة من بلاد الأندلس والمغرب التي تحتوى خليط من البربر والعرب الغير خلص.

ومن ذلك قول الرحالة ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ) الذي زارها في خلافة بني مروان نهاية ق ٣هـ وكتب عنها: «ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده من صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وتبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبرصاة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها»^(١)، وهو ما أثار حفيظة ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ)، فقال: «لم أر بدءاً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مُراصدة أعدائهم المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟ ومن الذين حملوها ببسالتهم من المتصلة بهم داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصره الصليب؟ وإني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دَلَفَتْ فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العبث في بلاد

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٢١١.

الإسلام، حيث الجمهور والقبة العظمى، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب، وما أدراك، وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة، إلى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ، ومن أعظم ذلك وأشدّه أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم، فيسبون ويأسرون، فلا يجتمع هم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك، وقد يستعين به بعضهم على بعض، فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يُطبُّ، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره، وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره، وإنما كانت الفتنة بعد ذلك: الأعلام بينه، والطريق واضح»^(١).

ثم شرع ابن سعيد في تقديم سرداً للمسيرة السياسية الإسلامية في الأندلس منذ صدر الفتح وتعدد الولاة فيها، ودورهم وجهودهم، أمراء بني أمية، وعظم الدولة الأندلسية في عهدهم، واتسعت حدودها إلى بر العدو، ومراعاهم للشرع وتعظيمهم للعلماء، واستمر في سرد تاريخ الأندلس إلى وقت ملوك الطوائف وما أعقب عصرهم من فتن، ووصف الخطط الأندلسية مثل الوزارة، الكتابة، الخراج، القضاء، الشرطة، الحسبة، وغيرها^(٢).

وفصّل فضلهم في العلوم والآداب، ولم يترك صغيره ولا كبيرة في ذكر جزيرة الأندلس وموقعها وخيراتها والتاريخ الأندلسي ومحاسنه وفضل علمائه إلا وكتب فيه وسمى كتابه: وشي الطرس، في حلى جزيرة الأندلس^(٣).

ولم يتأخر أيضاً غيره ممن سبقه أو أتى بعده من مؤرخي وكتاب الأندلس في

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٢١٢.

(٢) السابق، ص ٢١٢-٢٢٠.

(٣) للاستزادة حول تقسيمات الكتاب وفصوله انظر المغرب: نفح الطيب، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

الكتابة عن فضل بلاد الأندلس وحضارتها وآثارها، ومدنها و كورها مثل ابن غالب (ت ٧٦٧هـ) صاحب فرحة الأنفس، وأبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ) في المسالك والممالك، والحجاري (ت ٥٥٠هـ) في المسهب، وابن حيان (ت ٤٦٩هـ) وغيرهم ممن أخرجوا لنا مؤلفات تاريخية مشبعة بنزعة وطنية تجاه الأندلس وسكانها.

ولعل من أكثر أمثلة لزم المشاركة للمغاربة أثراً وصف الجاحظ سكان بلاد الأندلس بقوله: طينة حمقاء حيث زاره أحد الطلاب من بلاد الأندلس وهو سلام بن زيد ويكنى أبا خلف مرتحلاً إليه للمشرق ليأخذ عنه فدخل عليه وحوله طلابه، يقول سلام: «دخلت إليه فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحية غيره، فدهشت فقلت: أيكم أبو عثمان؟ فرفع يده وحركها في وجهي وقال: من أين أنت؟ قلت: من الأندلس، فقال: طينة حمقاء، فما الإسم؟ قلت: سلام، قال: اسم كلب القراد، ابن من؟ قلت: ابن زيد، قال: بحق ما صرت، أبو من؟ قلت: أبو خلف، قال: كنية فرد زبيدة، ما جئت تطلب؟ قلت: العلم، قال: أرجع بوقت فإنك لا تفلح، قلت له: ما أنصفتني، فقد اشتملت على خصال أربع: جفاء البلدية، بعد الشقة، وغرة الحداثة، ودهشة الداخل، قال: فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري ما كان يجب أن تعرفني بها؟ قال: فأقمت عليه عشرون سنة»^(١).

وهذا ابن بسام صاحب الذخيرة يذكر: «أن أبا علي البغدادي صاحب الأمالي الوافد على الأندلس في زمان بني مروان قال: لما وصلت القيروان وأنا أعتبر ما أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في الغباوة وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتى كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم مُحاصصةً ومُقايسة، قال أبو علي: فقلت: إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في

(١) الحموي: معجم الأدباء إرشاد الأريب في معرفة الأديب، (تحقيق إحسان عباس)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١٩٩٣م، ج ٥، ص ٢١١٧.

أفهامهم، بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم، فسأحتاج إلى تُرجُمان، بهذه الأوطان»^(١)، ثم يردف ابن بسام قائلاً بنبرة انتصار: «فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة، ويقول لهم: إن علمي علم رواية، وليس علم دراية، فخذوا عني ما نقلت، فلم آل لكم إن صححت، هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات، والأخذ عن الثقات»^(٢).

وكان بعض المشاركة يحملون شيئاً من الاستخفاف والاستنقاص للمغاربة أكثر من التقدير والإعجاب ويسيطر عليهم فكرة أن النور لا يمكن أن يصدر إلا عن المشرق يقول الشقندي في دفاعه عن الأندلس: «وأما علماؤها وشعراؤها- يعني الأندلس- فإني لم أعرض منهم إلا لمن هو في الشهرة كالصباح، وفي مسير الذكر كمسير الرياح، وأنا أحكي لك حكاية جرت لي في مجلس الفقيه الرئيس أبي بكر ابن زهر، وذلك أني كنت يوماً بين يديه، فدخل علينا رجل أعجمي من فضلاء خراسان، وكان ابن زهر يكرمه، فقلت له: ما تقول في علماء الأندلس وكتائبهم وشعرائهم؟ فقال كبرت، فلم أفهم مقصده، واستبردت ما أتى به، وفهم مني أبو بكر ابن زهر أني نظرت نظرة المستبرد المنكر فقال لي: أقرأت شعر المتنبّي؟ قلت: نعم، وحفظت جميعه، قال: فعلى نفسك إذن فلتنكر، وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم فذكرني بقول المتنبّي:

كبرتُ حول ديارهم لَمَّا بدتُ منها الشموس وليس فيها المشرقُ

فاعتذرت للخراساني، وقلت له: قد والله كبرت في عيني بقدر ما صغرْتُ نفسي عندي، حين لم أفهم بُبل مقصدك فالحمد لله الذي أطلع من الغرب هذه الشموس،

(١) الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٢.

(٢) السابق نفس الجزء والصفحة.

وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤوس»^(١).

يقول المقرئ: «وكان الغزال أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب، فذكر ذلك لعبدالرحمن، فأمر بنفيه، فدخل العراق، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره، ولا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أَكَدْتُ سَمَاؤَهُمْ تَأَبَّطْتُ زَيْقِي وَاحْتَبَسْتُ عَنَائِي

... الأبيات، فأعجبوا بالشعر، وذهبوا في مدحهم له، فلما أفرطوا قال لهم: خفضوا

عليكم، فإنه لي، فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التي أولها:

تَدَارَكْتُ فِي شَرَبِ النِّبَذِ خَطَائِي وَفَارَقْتُ فِيهِ شِيَمِي وَحِيَائِي

فلما أتم القصيدة بالإنشاد خجلوا، وافترقوا عنه»^(٢).

ويقول ابن عبدون (ت ٥٢٩هـ)^(٣)، في رسالة وجهها إلى ابن أبي الخصال (ت

٥٤٠هـ)^(٤): «وما أنا وفلان؟ وهل هو إلا من الغرب؟ وإن كان بزعمه في الصميم

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ٢٢٢، وانظر الرسالة كاملة، ص ١٨٦-٢٢٢.

(٢) نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٦٠-٢٦١، وانظر ترجمة يحيى بن الحكم البكري الجبلي من بني بكر بن وائل، الملقب بالغزال لجماله، في الضبي: بغية الملتبس رقم ١٤٦٧، ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٥٧، المقرئ: نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٣) أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون، شاعر وأديب وزير لابن الأفلح، له أشعار بليغة، اشتهر بقصيدته البسامة، التي رثى بها التوكل، انظر ابن خاقان: فلائد العقيان، ص ٤١٧-٤٢٨، ابن سعيد: الرابات، ص ٩٩، الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ١٦-١٧، ج ٢، بن ضيف: أحمد، بلاغة العرب في الأندلس، تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٩٨م، ص ١٨٩، بالنشأ: أنخل جنثال: تاريخ الفكر الأندلسي، (ترجمة: حسين مؤنس)، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٥٥م، ص ١١٨.

(٤) أبو عبدالله محمد بن مسعود بن طيب بن خلصة، أديب وشاعر عالم بالأخبار، له عدة مؤلفات. (انظر ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصديقي أبي علي حسين بن محمد، (تحقيق: إبراهيم الأبياري)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٩م، ص ١٥٢، رقم ١٢٥، السيوطي: جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، =

من الغرب، وهل الغرب في الأقطار إلا كاللحق بين الأسطار»^(١)، هل هذا تواضع من الكاتب أم إحساس حقيقي بقلة قيمته؟ فما لاشك فيه أن ابن أبي الخصال يعرف جيداً أن ابن عبدون يتحدث على هذا النحو تواضعاً جميلاً منه^(٢).

كانت هذه نماذج مما قاله المشاركة عن أهل الأندلس والتي عدوها لمراً لهم وانتقاصاً لشأنهم، هذا بلاشك مما جعلهم ينبرون للدفاع عن أنفسهم ووطنهم فتمنخض عن هذا كتابات تاريخية مهمة دونت تاريخ الأندلس وفضلها وسجل مؤلفوها وكتابها في صدر تأليفهم أن سبب تأليفهم لها وطنيتهم فكتبوها بطابع وطني دفاعاً وحمية وإباء، فنجد ابن سعيد يقول: «يعلم الله أني ما أقصد إلا إنصاف المنصفين الذين لا يميل بهم التعصب، ولا يمحى بهم الهوى، ولكن الحق أحق أن يتبع، فلعلّ مطلعاً يقف على ما ذكره ابن غالب فيقول: تعصب هذا الرجل لأهل بلده، ثم يغمس التابع له والراضي ينقل قوله في هذه الصبغة ويحمله على ذلك بُعداً عن الأرضين:

ولو أبصروا ليلي أقرؤا بحسنها وقالوا بأني في الثناء مُقصر»^(٣)

وما رسالة الشقندي التي كتبها في الدفاع عن الأندلس وأهلها إلا ردة فعل قوية غذيت بدماء وطنية يقول في مطلعها: «أما بعد: فإنه حرك مني ساكناً، وملاً مني فارغاً، فخرجت عن سجيّتي في الإغضاء، مكرهاً إلى الحمية والإباء، منازع في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع، ويأتي بما لا تقبله النواظر والأسماع، إذ من رأى ومن

= بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٢٤٣، المقرئ: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (تحقيق: مصطفى السقا وآخرون)، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي، ١٩٣٩م، ج ٥، ص ١٦٧.

(١) المراكشي: المعجب، ص ١٢٠.

(٢) بريس: هنري، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٨م، ص ٥٠.

(٣) المقرئ: نفع الطيب، ج ٣، ص ١٥٢-١٥٣.

سمع لا يجوز عنده ذلك، ولا يُضله من تاه في تلك المسالك، رام أن يُفضل بر العدو
على بر الأندلس فرام أن يُفضل على اليمين اليسار، ويقول: الليل أضوأ من النهار.. ما
هذه المباهة التي لا تجوز؟ وكيف تبدي أمام الفتاة العجوز...؟

لشتان ما بين البيزيدين في الندي يزيد سليم والأغر بن حاتم

أقن حياءك أيها المغرد بالنعيب، المتزين بالخلق المتجب إلى الغواني بالمشيب
الخصيب، أين عزب عقلك؟ وكيف نكص على عقبه فهمك ولبك؟ أبلغت العصية
من قلبك، أن تطمس على نوري بصرك ولبك؟ أما قولك «الملوك منا» فقد كان
الملوك منا أيضاً... إن كان الآن كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني
عبدالمؤمن أدامها الله تعالى، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول مشرقهم:

وإني من قوم كرام أعزّه لأقدامهم صيغت رؤوس المناير
خلائف في الإسلام في الشرك قادة بهم وإليهم فخر كل مفاخر
ويقول مغربهم:

ألسنا بني مروان كيف بنا الحال أو دارت علينا الدوائر

إذا ولد المولود منا له الأرض واهتزت إليه المناير

وقد نشأ في مدقم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق، وصار أثبت في
صحائف الأيام، من الأطواق في أعناق الحمام»^(١).

ويقول ابن بسام في جزيرة الأندلس: «أشرافُ عرب المشرق افتتحوها، وسادات
أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيهم في كل إقليم، على عرق كريم، فلا
يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر»^(٢).

وأخرج لنا الحجاري في مسهبه كتابات تاريخية تشيد بالأندلس وسماها عراق

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٧، وانظر المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٥٤.

المغرب، عزة أنساب، ورقة آداب، واشتغالاً بفنون العلوم، وافتاناً في المنثور والمنظوم لم تضق لهم في ذلك ساحة ولا قصرت عنه راحة^(١)، وخلد تاريخهم في مؤلفه لكل مطلع ومتذوق للتراث الأندلس.

المطلب الثاني: مباهاة المغاربة ومنافستهم للمشاركة في العلم والفضل:

حرص المغاربة على أن يبرزوا فضلهم وعلمهم وحضارتهم وتاريخهم الحافل وأن يصل إلى بلاد المشرق، خاصة أن المشاركة دائماً يرون أن لا أحد ينافسهم في علمهم وأن المغاربة مهما بلغ نتائجهم العلمي وحضارتهم فأصولها مشرقية وهم بذلك أهل الفضل والسبق، ولعل في قول صاحب عن «العقد الفريد» لابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)^(٢)، «هذه بضاعتنا ردت إلينا»^(٣)، ما يُلْهب جو المنافسة ويذكي نار الحمية الوطنية لخوض غمار المنافسة، وهو ذات السبب الذي حدى بكتاب الأندلسي أن يعملوا نزعته الوطنية لشحذ همم الكتاب والعلماء لإبراز فضلهم وعلمهم والدعوة لتسجيل تاريخهم الأندلسي وأنهم لا يقلون عن المشاركة علماً، وأدباً وحضارة، وكان من نتائج تلك المنافسة أن خرجت إلينا عدة مؤلفات تتبع وترصد جهود علماء الأندلس وفضلهم وعلمهم وجمال جزيرتهم وحضارتهم التي بلغت الآفاق لدرجة أن خصصت بعض المؤلفات للكتابة عن فضل بعض المدن الأندلسية وحضارتها وعلمائها نحو: «الذخيرة في

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج٣، ص ١٥٥ (نقلاً عن الحجاري).

(٢) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي، يكتي أبا عمر، نشأ في قرطبة، يعد كتابه العقد الفريد صورة جامعة لثقافته المتنوعة في الأدب، والتاريخ، والفقه، وعلوم القرآن، والحديث، والسيرة، والنوادر، وعلم العروض والقوافي، والنحو. (انظر ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة، ص ٤٩-٥٠، الحميدي: جذوة المقتبس ص ٨٩، ابن خاقان: المطمح ص ٢٧٠، الضبي: البغية ص ١٢٧، المقرئ: نفح الطيب، ج٧، ص ٥٠).

(٣) ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، (تحقيق: محمد التنوحي)، بيروت: دار صادر، ط ٢، ٢٠٠٩م، ج ١، ص ٧.

محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام (ت ٥٤٢هـ)، و«الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب (ت ٧٦٦هـ)، و«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» للمقري (ت ١٠٤١هـ).

وهذه النزعة الوطنية هي التي جعلت ابن بسام يتعصب لأهل أفاقه وتثور حفيظته فوجه إليهم نداؤه يحثهم على الإنتاج وعدم التبعية لعلماء المشرق فيقول: «إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعت بتلك الآفاق، غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمي القصية، ومُناخ الرذيلة، لا يعمر بها جنان ولا خلَد، ولا يُصَرَّف فيها لسان ولا يد»^(١) بل إننا نجده يجعل من هذا سبباً لتأليف كتابه الذخيرة فيقول: «فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هناك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بُدوره أهلة، وتصبح بحارُهُ ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديماً ضيعوا العلم وأهله، ويارب مُحسنٍ مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟»^(٢).

وأوضح ابن بسام أنه ضمّن هذا التأليف محاسن أهل زمانه في المغرب والأندلس ليباهي بهم المشاركة وليس تعصبا للمغاربية ورغبة في إنقاص فضلهم ويبرهن على أن العلم والفضل غير مقتصر على قطر دون آخر، يقول ابن بسام: «وقد كتبت لأرباب هذا الشأن من أهل الوقت والزمان، محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب... والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر،

(١) الذخيرة، ج ١، ق ١، ص ١٩.

(٢) السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٠.

تقدّم به الزمان أو تأخر، ولحى الله قولهم: الفضل للمتقدم، فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان، ولو اقتصر المتأخرون على كُتُب المتقدمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير، وقد أودعت هذا الديوان الذي سمّيته بـ «كتاب الذخيرة، في محاسن أهل هذه الجزيرة» من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة....، ومارست هنالك البحث الطويل والزمان المستحيل، حتى ضمنت كتابي هذا من أخبار هذا الأفق، ما لعلني سأربي به على أهل المشرق، وما قصدت به - علم الله - الطعن على فاضل، ولا التعصب لقاتل على قاتل، لأن من طلب عيباً وجده، وكل يعمل باقتداره، وبجهد اختياره»^(١).

أطلق ابن بسام كغيره من علماء وكتاب عصره والسابقين واللاحقين، العنان للنزعة الوطنية لترصد لنا جهد علماء المغرب وإبداع شعراءه وكتّابه «وما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنون، وأئمة النوعين، قوم هم ما هم طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعدوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق لعب الدّجى بجفون المورق،.. فصبوا على قوالب النجوم، غرائب المنشور والمنظوم، وباهوا غرر الضّحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل: نثراً لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح»^(٢).

ومن حسن الحظ أن دون علماء وكتاب الأندلس كتاباتهم وأديهم وحضارتهم في مؤلفاتهم للمباهاة أو التقليد، فاحتفظت المكتبة الأندلسية بأهم تلك المؤلفات وأثمنها، فنجد أن ابن عبد ربه ألف العقد لهذا الغرض حيث كان هدفه حب اللحاق والسباق

(١) المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢١-٢٢.

(٢) السابق، ج ١، ق ١، ص ١٩.

والتفوق، وبالفعل حقق بهذا المؤلف شهرة بالغة ومنافسة حامية «شَهْرُ الأندلس حتى سار إلى المشرق»^(١) فقال عنه ابن سعيد: «إمام أهل أدب المئة الرابعة، وفرسان شعرائها في المغرب كله»^(٢)، وبلغ صيته بلاد المشرق لهذا سماه المتنبي مليح الأندلس وطلب من أندلسي وافد على بلاد المشرق أن يسمعه من شعره قائلاً: «أنشدني للمليح الأندلس، فأنشده:

يا لولؤاً يسي العقول أنيقاً	ورشاً بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله	دراً يعودُ من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه	أبصرت وجهك في سناه غريقاً
يا مَنْ تَقَطَّعَ خصرُهُ من رَقَّة	ما بالُ قلبك لا يكون رقيقاً

فلما أكمل إنشادها استعادها منه، وقال: يا ابن عبد ربّه، لقد تأتيتك العراق حبّواً»^(٣).

وقد لام ابن الريب التميمي القيرواني^(٤) أهل الأندلس وكتابهم على تقصيرهم في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ليباهوا بها من حولهم من علماء الأمصار الذين دونوا فضائل أمصارهم، وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم فقال في ذلك عن بلاد الأندلس: «كانت قرارة كل فضل، ومنهل كل خير، ومقصد كل طرفة، ومورد كل تحفة، وغاية آمال الراغبين، ونهاية آماني الطالبيين،... مع كثرة علمائها، ووفور أدبائها، وجلالة ملوكها، ومحبتهم في العلم وأهلها، يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج٧، ص٥٢.

(٢) ابن عبدربه: العقد، ص٩.

(٣) المقرئ: نفح الطيب، ج٧، ص٥٢.

(٤) الحسين بن محمد التميمي، أديب وعالم عارف بالأنساب، أصله من تاهرت. (انظر ابن رشيق: أمّوذج الزمان في شعراء القيروان، (جمعه وحققه: محمد العروسي وبشير البكوش)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١،

١٩٩١م، ص٩٤-٩٨.

أدبه... فتنافس الناس في العلوم، وكثر الحُذاق في جميع الفنون، ثم هم مع ذلك على غاية التقصير ونهاية التفريط، من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم، وخلصوا في الكتب مآثر بلدانهم، وأخبار الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكراً في الغابرين يتجدد على مر الليالي والأيام، ولسان صدق في الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام، وعلمائكم مع استظهارهم على العلوم كل أمرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وراتب على كعبه لا يترشح، يخاف إن صنف أن يعنف، وإن ألف أن يُخالف، ولا يؤالف، أو تحطفه الطير أو قهوي به الريح في مكان سحيق، ولم يُتعب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده، ولا يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بل قلماً بمناقب كتابه ووزرائه، ولا سود قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه، على أنه لو أطلق ما عَقَلَ الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساعاً، ولم تضق عليه المسالك، ولم تخرج به المذاهب، ولا أشبته عليه المصادر والموارد، ولكن هم أحدهم أن يطلب شأواً من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق، فإذا أدرك بغيته، احترمه مَنِيَّتِهِ، دفن معه أدبه وعلمه، فمات ذكره، وانقطع خيره»^(١).

وسجل الحافظ ابن حزم عند وقوفه على هذا الاستنهاض ما يكفي لمنافسة المشرق في مباحاته ببلاده وموقعها وتاريخها ثم سرد كشاف تاريخي جغرافي أدبي حافل بأسماء علماء الأندلس وكتابهم ومؤرخيهم وسجل اسم مؤلفاتهم في اللغة والأدب وعلم الكلام، والفقه والحديث والتفسير والتاريخ والجغرافيا والأنساب، والهندسة، وقال مفاخرًا ومنافسًا: «وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء- فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود

(١) المقرئ: نفع الطيب، ج ٣، ص ١٥٧-١٥٨.

ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها... ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمّة الكلابي في الشعر لم نُبَاهِ به إلا جريراً والفرزدق، لكونه في عصرهما.. وإذا سمينا بقيّ بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان ابن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نُبَاهِ به إلا القفال ومحمد بن عقيل الفريابي، وهو شريكهما في صحبة المزني... ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبیب والمتني... ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمر وسهل ومحمد بن عبدالله بن مسرة في طريقه التي سلك فيها»^(١).

ولم يُفَتَّ ابن سعيد أن يفاخر وينافس بما في وسعه من فضائل بلده وتحدث عن مؤلفاتهم في العلوم والأدب والدين والأصول والتاريخ والطب وغيرها، التي ذاع صيتها واشتهرت ببلاد المشرق، وتحفل رسالة ابن سعيد بفهرس يكاد يكون شاملاً لنتاج علماء وكتاب وأدباء ومؤرخي المغرب وتآليفهم المفيدة التي سجلوا فيها تاريخهم المجيد وحضارتهم وبرهنوا فيها على أنهم أصحاب فضل وعلم وحضارة وسبق ولا يقلون عن المشاركة في شيء^(٢).

وفي "نفع الطيب" مفاخر وعلم وفضائل لأهل الأندلس وجزيرتهم تكفي لمرتاد التاريخ الأندلسي وتبرهن على قدم السبق لهم.

وقد كان لهذه المنافسة عطاءات علمية مهمة أثرت المكتبة الأندلسية، حيث وصلت

(١) المقرئ: نفع الطيب، ج ٣، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) المقرئ: نفع الطيب، ج ٣، ص ١٧٩-١٨٦.

للمباهاة والمنافسة بالإقليم ورجاله وعلمائه، وظهرت كتب الطبقات والتراجم لتخلد أهم الحوادث التاريخية وسير الرجال، والقادة، والمحدثين، والعلماء، والكتاب وغيرهم نحو تاريخ قضاة قرطبة للخشني (ت ٣٦١هـ)، وتاريخ العلماء والرواة للعلم لابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ)، وحنوة المقتبس للحميدي (ت ٤٨٨هـ)، والصلة لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) وغيرها من الكتب التي تلتها وعنت بعلماء الأندلس ورواها، حيث توالى في سلسلة مرتبة زمنياً تُعد أفضل مما كتبه المشاركة عن علماءهم.

كما اجتهدوا في تدوين مؤلفات التاريخ المحلي الذي يهتم بتاريخ المدن والأقاليم نحو كتاب: «صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها» لمحمد بن علي بن ميسر (ت ٣٢٤هـ) وابن القوطية القرطبي (ت ٣٦٧هـ)، وابن حيان (ت ٤٦٩هـ)، والرقيق القيرواني (٤٢٣هـ)، وظهور هذه النزعة المحلية أو الإقليمية للمدن والأقاليم دلالة واضحة على شعور أولئك المؤلفين هذه المدن بدورهم وأهمية إسهاماتهم في مجال التراث العربي الإسلامي المشترك، كما يعكس تحول أنظار المؤرخين في الأندلس كغيرهم إلى النشاط الفكري والعلمي لهذه المدن من خلال إبراز اللامعين لرجالها في شتى مجالات العلوم^(١).

وبهذا نسج أولئك الكتاب والمؤرخون كتاباتهم التاريخية مشوبة بنزعة وطنية وحولوا الحوادث التاريخية إلى تراجم، معتبرين رجال العلم والفكر هم التاريخ وهم أولى الناس بتصدر صفحاته أكثر من رجال السياسة في منهج علمي أبرز دورهم الفكري والعلمي

(١) فوزي: فاروق عمر، التدوين التاريخي عند المسلمين، مقدمة في دراسة نشأة علم التاريخ وتطوره حتى بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، الإمارات: مركز زايد للتراث والتاريخ، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٢٠٤.

وإسهاماتهم في الحركة الحضارية العامة في بلاد الأندلس تقديراً لجهودهم^(١) مما أخرج لنا رصيдаً حافلاً للحركة الفكرية والعلمية والحضارية في بلاد الأندلس متوشياً التاريخ السياسي لذلك الإقليم نحو كتاب «المقتبس من أنباء أهل الأندلس» لابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩هـ).

وقد أدى هذا النهج عند أولئك الكتاب والمؤرخين في الأندلس إلى إيصال شعور قوي للناس في المشرق والمغرب يتضمن أنه إذا كان المغرب يدين للمشرق بالكثير، فقد ظهرت على أرضه جهود وفضائل وحضارة وتاريخ وقيم وفكر قد لا تكون في المشرق، ويجب بأن لا يتم تجاهلها أو التقليل منها، ونادوا من خلال كتاباتهم بوقف التقليل من شأن التاريخ والأدب المغربي في المشرق محتفظين بهويتهم الوطنية بكل إباء وكبرياء.

فهذا الحميدي يروي: «أُشيد بحضرة بعض زعماء الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق وهي:

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا	وقد علموا أي المشوق المتيم
سروا ونجوم الليل زهر طوالع	على أنهم بالليل للناس أنجُم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم	فَنَمَّ عليها في الظلام التَّبَسُّمُ

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها، وقال: هذا مالا يقدر أندلسي على مثله، وبالحضرة أبوبكر يحيى بن هذيل، فقال بديهاً:

عرفت بعرف الريح أين تيمموا	وأين استفلّ الظاعنون وخيموا
خليلي رَدَّ إني إلى جانب الحمى	فلستُ إلى غير الحمى أتيَمُّ
أبيتُ سمر الفرقدين كأنما	وسادي قتادُ أو ضجيعي أرقمُ

(١) شاكرو: مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٨٣، ج ٣، ص ٣٦٠.

... الأبيات»^(١) فكانت أبيات الأندلسي تعادل في روعتها وجودتها أبيات الشاعر المشرقي إن لم تكن قد تفوقت عليها.

وهكذا نجح الأندلسيون في إظهار فضل بلادهم ومكانة علمائهم، حيث كتب أبو الوليد الحميري ابن جيب (ت ٤٤٠هـ) وزير القاضي أبي القاسم بن عباد ملك إشبيلية كتابه «البديع في فضل الربيع» وذاع صيت هذا الكتاب وطار خبره حتى أثار ذلك إعجاب الناس هناك فتساءلوا كم مجلداً يحتاج إليه الكاتب ليسجل جميع القصائد والكتابات التي تصف جمال الأندلس والربيع والحدائق والأزهار وتحمل دلالات تاريخية مهمة، وفي ثنايا مقدمة هذا الكتاب صرح أبو الوليد الحميري بمكانة كُتّاب وشعراء قطره وأهل عصره وتفوقهم على المشاركة بطريقة مهذبة ولطيفة منها قوله: «وأما أشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر إليها، حتى تميل نحوها النفوس، ولا يروقها منها العلقُ النفيس، مع أني استغني عنها ولا أحوج إلى ذكرها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع، والنظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصري إذا لم تغب نوادرهم عن ذكري...، ولأهل المشرق في تأليف أشعار شعرائهم، وتدوين أخبار علمائهم والفضل علينا والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسننها، ويضيفون لحنّها إلى لحنها، لا قلة مَيزٍ بها بل تخرجاً عن تركها. ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة لأوردتُ على الحقيقة أمثال ما أوردت وأضعاف ما اجتلبت، لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم، وتقيفهم لأخبارهم مذ تكلمت العرب بكلامها، وشغلت بنشرها ونظامها إلى هلمّ جرّاً...، لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدي على كثرة ما سقط منها عن يدي بالغفلة التي

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٣، ص ١٥٣-١٥٤.

ذكرتها عنها، وقلة التهمّم بها، وعلى قرب الأندلس بمنتحلي الإسلام، فكيف بمنتحلي الكلام، ولو تأخروا عن إدراك المشرقين في كل نحو وعرض، وتقهقروا في كل جوهر وعرض، لكانوا أحقاء بالتأخر، أحرىء بالتقهقر، فكيف يُرى فضلهم وقد سبقوا»^(١).

ولم تقتصر المنافسة على هذا الجانب بل وصلت بالتسمي بأسماء المشاهير من الكتاب والأدباء واللغويين البارعين من المشاركة، أو التلقب بألقابهم فأصبح ابن خفاجة صنوبري الأندلس، وأبوبكر المخزومي يلقب بالمعري الثاني، وابن زيدون يلقب ببحتري المغرب، وكان ابن قزمان عندهم بمنزلة المتنبي، وأبو عبدالله الرصافي ينادي بابن الرومي، وهذا ابن حزم يسجل في رسالته عن فضل أهل الأندلس أن ابن درّاج القسطلي «لا يتأخر عن شأو بشار بن برد، وحييب، والمتنبي»^(٢)، وقال عنه الثعالبي: «هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام»^(٣)، وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس أبو عبدالله بن الحاج صاحب الموشحات بمنزلة أبي تمام^(٤).

يقول الشقندي مُنافس للمشاركة: «هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعمل بأقواله إلى الآن، ومثل أبي الوليد الباجي، ومثل أبي بكر ابن العربي، ومثل أبي الوليد بن رشد الأكبر، ومثل أبي الوليد ابن رشد الأصغر؟...، ومثل أبي عمر ابن عبدالبر صاحب «الاستذكار» و «التمهيد» ومثل أبي بكر بن الجدد حافظ الأندلس في هذه الدولة، وهل لكم في حفاظ اللغة كابن سيدة صاحب كتاب «المحكم» وكتاب «السماء والعالم» الذي أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته... وهل لكم في علم التاريخ كابن

(١) البديع في فصل الربيع (حققه وقدم له علي إبراهيم كردي)، دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، ص٤-٥.

(٢) المقرئ: نفح الطيب، ج٣، ص١٧٨.

(٣) المصدر سابق، ج٣، ص١٩٥.

(٤) السابق، ج٣، ص٣٨.

حيان صاحب «المتين» و «المقتبس»؟ وهل عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عمر ابن عبد ربه صاحب «العقد»؟ وهل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب «الذخيرة»؟ وهَبْ أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسة في البيت الفارغ»^(١).

ويظل كتاب ابن بسام (ت ٥٤٢هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة «بالنسبة لعصر المؤلف والحوادث التي تخللها من عصر الفتنة وعصر ملوك الطوائف وثيقة تاريخية وأدبية ذات قيمة غاية في الأهمية، فهو يرفل في تضاعيفه بالأخبار والحوادث التاريخية لعصر المترجم لهم وحفظ جزء قيم من متين ابن حيان لا يوجد في سواه، ولم يذخر أي مجال يواتيه لتسجيل تفوق الأندلسيين على المشاركة، نحو قوله في مقدمة القسم الرابع من كتابه وقد خصصه لذكر الكتاب والوزراء، والأعيان والأدباء والشعراء الوافدين على جزيرة الأندلس، والطارئين عليها من أول المائة الخامسة من الهجرة إلى وقته مع تضمين ذلك نوادرهم وأخبارهم وأشعارهم:

«ولم آت بهذه الفرقة من أرباب هذا الفن الذي أنا في إقامة أووذه، مُتَعَزِّزاً من ذلة، ولا مستكثراً من قلة، ولا لأنني لم أجِدْ من أعيان وزرائنا وكُتّابنا من هو أبعد غاية، ولا أبهر آية، ولكنهم أسندوا إلى أعلامها، وترددوا بين جَمِيمِها وجَمَامِها، فصاروا من أهلها بالوفادة عليها، وخلع أوطانهم إليها، مع أن هذه الطائفة لم يسم إلا بالأندلس ذكرهم، ولا طارَ إلا بمدح ملوكنا شعرهم، وكم في شعرائنا من عاصرني ولم أسمع بذكره، ولا وقع إلي شيء من شعره، ولعله كان أخلق بأن يُذكر، وأحقّ بأن تُتلى آيائه وتُسَطر، لكن يُلْغُ المرء جهده، والإحاطة لله وحده»^(٢).

(١) السابق، ج ٣، ص ١٩٢-١٩٣.

(٢) ق ٤، ج ٧، ص ٩.

هذا ورغم نزعة علماء وكتاب ومؤرخي الأندلس وحميتهم ووطنيتهم إلا أنهم لم يكن هدفهم أن تطمس فضائل من يترجمون لهم من المشاركة فتجد الموضوعية في مواقع كثيرة من كتاباتهم نحو قول أبي الوليد الحميري في مقدمة كتابه «البديع في فضل الربيع»: ولأهل المشرق في تأليف أشعار شعرائهم، وتلوين أخبار علمائهم، الفضل علينا والسبق لنا»^(١).

وهذا ابن بسام يود ترجمة ابن حيان لصاعد البغدادي صاحب الفصوص وبعدهما أورد قول ابن حيان عنه: «لما دخل قرطبة دفعوه بالجملة عن العلم باللغة، وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه، ولذلك ما رضيه أحدٌ من أهلها أيام دخوله وغرقوا كتابه المترجم بـ «الفصوص»، فهاهو إلى اليوم في نهرهم يغوص»^(٢)، قال ابن بسام: «وقد أتيت أنا بلمح من أعاجيبه، وأوردت غرائب من أكاذيبه، وتخللت أثناء ذلك جملة من نظمه ونثره، مما يشهد على ثبوت قدمه وشهرة تقدمه»^(٣)، ولام المنصور بن أبي عامر على إغراق الفصوص، إذ أنه لا بد أن يكون في طياته فائدة فقال: «ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير ولا بصرٌ بالنقد مشهور، وإلا فليس يخلو كتاب «الفصوص» المذكور من غريبة مسموعة، ولا من فائدة راقية بديعة، ولكنه خبر وجدناه فنقلناه»^(٤)، وذكر أن صاعد على تنابعه في الكذب ولجأته بين الإمتهان وسوء الأدب، كان بديع الجواب حاضره، طيب المعاشرة، فكة المجالسة^(٥).

وقد ذكر الشكعة أن ابن بسام عمد إلى إظهار فضل الأندلسيين مع تحمس شديد لهم، وحاول أن ينال من المشاركة بشكل تبدو معه غيرته غير المحمودة ومحاولته التقليل

(١) ص ٤.

(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ٧، ص ١٠.

(٣) السابق، ق ٤، ج ٧، ص ١٠.

(٤) السابق، ق ٤، ج ٧، ص ١٥.

(٥) السابق، ق ٤، ج ٧، ص ٢٠-٢٢.

من أدب المشاركة، ثم يتمنى أن لا تكون في الرجل «مسحة شعوبية»، بل ذكر أن تحامل ابن بسام هناك «جاء سافراً غير كريم وهو عيب يحسب عليه، بل سقطة تردى فيها، لأن شعراء المشرق لا يزالون هم أساتذة الشعر، وما برح كتاب المشرق هم أئمة الكتابة وكل كتاب الأندلس بلا استثناء حتى عصر المؤلف عيال عليهم وصورة مهتزة عنهم، وأردف قائلاً إن التحامل والتجني والتحقير ليس من صفات المؤلف إذا أراد أن ينتظم في عقد الصادقين من المؤرخين والرواة والمؤلفين»^(١)، ووصف هذه بأنها حملة شعواء من ابن بسام على المشاركة.

ويذكر الشكعة أن ابن بسام فاجأنا عندما ترجم لأدباء المشاركة الوافدين على الأندلس ولا عليه في ذلك فرمى اعتبرهم أندلسيين^(٢)، ثم يستغرب أن يترجم ابن بسام لأدباء مشاركة لم تطأ أقدامهم أرض المغرب والأندلس، و ليسوا من رجال القرن الخامس الهجري، نحو الثعالي وغيره، واعتبر ذلك عيباً منهجياً^(٣)، ثم قال عن ابن بسام: «أنه هو نفسه تلميذ للمشاركة وعالة عليهم في منهج كتابه هذا فهو صورة دقيقة للثعالي في اليتيمة»^(٤).

ونحن نرى بكل موضوعية أن ابن بسام لم يحاول أن ينال من المشاركة، أو أن يثبط عزم أهل أفقه نحو اهتمامهم بأدب المشاركة، وليس معنى اهتمامه بأدب قومه ومآثرهم أنه يعاني من مسحة شعوبية، وإلا فإن ابن الفرضي الذي كتب في تاريخ علماء الأندلس يعاني منها أيضاً وكذلك صاحب البغية الذي كتب في رجال الأندلس،

(١) مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١، ١٩٨٢، ص ٦٣٨-٦٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤١.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

وغيرهم ممن خلد مآثر بلده، بل إنها النزعة الأندلسية المتأصلة، والاعتزاز بالبلد وبعمق الإلتواء له وتحقيق شيء من الولاء له، وليس معنى ذلك التقليل من أدب المشاركة، هذا ولم يُفاجئنا ابن بسام بالترجمة للمشاركة كما ذكر الشكعة، حيث وضع ذلك في خطة كتابه إعجاباً بأدبهم وفضلهم ورغبة منه في إعطاء أهل أفقة صورة مشرفة عنهم ليحرك همهم، ولم يعتبرهم أندلسيين كما ذكر الشكعة، حيث وضع عناوين للوافدين منهم إلى الأندلس، وعندما يترجم ابن بسام لأدباء مشاركة لم تطأ أقدامهم الأندلس فإن ذلك من أكبر الدلائل على عدم تحيز ابن بسام وموضوعيته.

هذا ولم يكن ابن بسام عالة على المشاركة ولم تكن الذخيرة صورة دقيقة لليتيمة، وابن بسام نفسه لم ينسب شيئاً منها له وأوضح في خطته أنه اتسبى بالثعالي، وقال بكل موضوعية موضحاً قيمة الثعالي: «راعي تلعات العلم، ... أسوة المؤلفين في زمانه وإمام المصنفين بحكم قرانه.. طلعت دواوينه في المشارق والمغارب»^(١).

وهكذا يبدو لنا أن ما ذكره الشكعة عن ابن بسام أثناء حديثه عن ملامح كتاب الذخيرة ومنهجه غير مقبول.

(١) الذخيرة، ق ٤، ج ٨، ص ٣٤٩.

الخاتمة

كان هذا عرضاً لأهم أسباب وعوامل النزعة الوطنية لدى مؤرخي لأندلس، وقد بدا لنا أن تلك النزعة لم تنشأ من فراغ، كما لم تكن وليدة يومها أو ليلتها بل تكونت لدى أولئك القوم نتيجة لتراكم عدد من التحديات التي شعروا بها، فعملوا على تلافيها وبيان حقيقة قطرهم ومافيه من العطاءات الكثيرة حيث دونوا ذلك في قوالب علمية متبينة بدت فيها نزعتهم الوطنية واضحة وقوية.

* * *

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة:

الجناي: مصطفى بن حسن (ت ٩٩٩هـ).

١- الحافل الوسيط والعليم الزاخر المحيط في أحوال الأوائل الأواخر، مخطوط، الرباط:

الخزانة الحسنية، رقم ١٥٠٧، ورقة ٤٦٣-٤٦٤.

الزباني: أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم (ت ١٢٤٩هـ).

٢- الترجمان العرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط، الرياض: جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية، رقم ٨٢٨٩، ورقة ٢٨٣.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨هـ).

١- المعجم في أصحاب القاضي الصدي أبي علي حسين بن محمد، (تحقيق: إبراهيم

الأيباري) ط ١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٨٩م.

٢- التكملة لكتاب الصلة، (تحقيق: عبد السلام المراس)، بيروت: دار الفكر،

١٩٩٥م.

٣- المعجم في أصحاب القاضي الصدي أبي علي حسين بن محمد، (تحقيق: إبراهيم

الأيباري)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٩م، ص ١٥٢، رقم ١٢٥.

الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس المسعودي (ت ق. ٦هـ).

٤- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط ١، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٩م.

الأصفهاني: أبو عبدالله عماد الدين محمد.

٥- خريدة القصر وجريدة العصر، (تحقيق: محمد العروسي المطوي وآخرون) السدار

التونسية للنشر، ط ٢، ١٩٨٦م.

ابن بسام: أبو الحسن علي الششتري.

٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (تحقيق: إحسان عباس)، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٠م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود (ت ٥٧٨هـ).

٧- الصلة (تحقيق: إبراهيم الأبياري)، ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٨٩م.

البكري: أبو عبدالله عبدالله بن عبدالعزيز.

٨- المسالك والممالك، (تحقيق: أنور يان فان وأندري فيري)، قرطاج: بيت الحكمة، ١٩٩٢م، ج٢، ص٧٢٢-٧٢٣.

البيذق: أبو بكر بن علي الصنهاجي.

٩- أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة، ١٩٧١م، ص١٣-٩٦.

حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي (ت ١٠٦٧هـ).

١٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي.

١١- رسالة التلخيص لوجوه التخليص، (تحقيق: إحسان عباس)، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج٣، ١٩٨٧م.

١٢- رسالة في الرد على ابن النغيلة اليهودي، (تحقيق: إحسان عباس)، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج٣، ١٩٨٧م.

١٣- طوق الحمامة في الألفة والآلاف، (تحقيق: إحسان عباس)، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج٢، ١٩٨٧م.

- ١٤ - رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، (تحقيق: إحسان عباس)، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج٢، ١٩٨٧م.
- الحميدي: أبو محمد أبي نصر فوح الأزدي (ت ٤٨٨هـ).
- ١٥ - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، (تحقيق: روحية السويفي)، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- الحموي: ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ).
- ١٦ - معجم البلدان، ط٣، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.
- ١٧ - معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، (تحقيق: إحسان عباس)، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م.
- الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ).
- ١٨ - الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق: إحسان عباس)، ط٢، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.
- ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ).
- ١٩ - المقتبس. (اعتنى بنشره شالميتا)، مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ج٥، ١٩٧٩هـ.
- ٢٠ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس، (تحقيق: محمود علي مكي)، القاهرة: دار التعاون للطبع والنشر، ١٩٩٤م.
- ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩هـ).
- ٢١ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، (تحقيق: محمد علي شوابكة)، ط١، بيروت: دار عمار، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.
- ٢٢ - قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، (تحقيق: حسين خريوش)، ط١، عمان: مكتبة

المنار، ١٩٨٩م.

ثانياً: المراجع:

الأنصاري: محمد جابر.

١- التفاعل الثقافي بين الشرق والغرب في آثار بن سعيد، بيروت: دار الغرب

الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م

بالنشا: أنجل جتال.

٢- تاريخ الفكر الأندلسي، (تحقيق: حسين مؤنس)، بورسعيد: مكتبة الثقافة

الدينية، ١٩٥٥م.

بيريس: هنري.

٣- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر أحمد مكّي، القاهرة. دار

المعارف، ١٩٨٨م.

البغداددي: إسماعيل باشا.

٤- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،

بيروت: دار إحياء التراث العربي، د-ت.

٥- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت: دار إحياء التراث

العربي، ١٩٥١م.

خليفة: عبدالكريم.

٦- ابن حزم حياته وآثاره، بيروت: الدار العربية للطباعة والنشر، ص ٥٢ .

الزركلي: خير الدين .

٧- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،

ط١٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٩م.

السحياي: محمد بن صالح.

٨- جهود مفكري الأندلس الإصلاحية في عصر الطوائف، الرياض: مطابع أضواء المنتدى، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١٤٢٤، ٥١.

٩- النظم الحربية في دولة الموحدين بالمغرب والأندلس (٥١٥-٦٦٨هـ/١١٢١-١٢٦٩م)، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط١، ١٤٢٤هـ.

شاكر: مصطفى.

١٠- التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م.

الشكعة: مصطفى.

١١- مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٢م.

بن ضيف: أحمد.

١٢- بلاغة العرب في الأندلس، تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٨م.

عباس: إحسان.

١٣- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت: دار الثقافة، ط١، ١٩٦٠م.

عنان: محمد عبدالله.

١٤- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، العصر الثاني، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٤، ١٩٩٧م.

عويس: عبدالحليم.

١٥- ابن حزم الأندلسي جهوده في البحث التاريخي والحضاري، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ط ٢، ٢٠٠١م.

فوزي: فاروق عمر.

١٦- التدوين التاريخي عند المسلمين، مقدمة في دراسة نشأة علم التاريخ وتطوره حتى بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، الإمارات: مركز زايد للتراث والتاريخ، ط ١، ٢٠٠٤م.

كحالة: عمر رضا.

١٧- معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية. (اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٣م.

مكي: محمود علي.

١٨- تاريخ الأندلس السياسي، بيروت: نشر ضمن بحوث الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط ١، ١٩٩٨م.

نصر الله: سعلون.

١٩- تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ط ١، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٨م.

ابن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله لسان الدين التلمساني (ت ٧٧٦هـ).

٢٠- الإحاطة في أخبار غرناطة، (تحقيق: محمد عبدالله عنان)، ط ٤، القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١م.

٢١- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، (تحقيق: إ. ليفي بروفنسال)، ط ١، القاهرة: دار الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م.

ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ).

- ٢٢- العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م.
- ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ).
- ٢٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (تحقيق: يوسف ومريم طويل)، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
- الذهبي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ).
- ٢٤- سير أعلام النبلاء، (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون)، ط ٨، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م.
- ابن رشيق: حسن ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ).
- ٢٥- العمدة في صناعة الشعر وآدابه، (تحقيق: محمد الدين عبد الحميد)، القاهرة، ط ١، ١٩٣٤م.
- ٢٦- أنموذج الزمان في شعراء القيروان، (جمعه وحققه: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش)، ط ١، طبعة ثانية مزيّدة ومنقحة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١م.
- ابن الزبير: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٨هـ).
- ٢٧- صلة الصلة، (تحقيق عبد السلام المهراس والشيخ سعيد أعراب)، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٣م.
- ابن أبي زرع: علي بن عبدالله الفاسي.
- ٢٨- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، (راجعته: عبد الوهاب منصور)، الرباط: المطبعة الملكية، ط ٢، ١٩٩٩م.
- ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى بن محمد (ت ٦٨٥هـ).

٢٩- المغرب في حلى المغرب، (تحقيق: شوقي ضيف)، ط٤، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م.

٣٠- رآيات المرزبن وغايات المرزبن، (تحقيق: محمد رضوان الداية) ط١، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٧م.

السيوطي: جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن (ت ٥٩١١هـ).

٣١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٨م.

الضيبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ).

٣٢- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، (تحقيق: روحية السوفيني)، ط١، بيروت: دار الكب العلمية، ١٩٩٧م.

ابن عبدربه: أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي.

٣٣- العقد الفريد، (تحقيق: محمد التتوحي)، بيروت: دار صادر، ط٢، ٢٠٠٩م.

ابن عبدالمالك المراكشي: أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٧٠٣هـ).

٣٤- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، س١ق١، (تحقيق: محمد بن شريفة)،

بيروت: دار الثقافة، س٨ ق١ مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م، س٦،

(تحقيق: إحسان عباس)، ط١، ١٩٧٣م.

ابن عذارى: أبو عبدالله محمد المراكشي (ت بعد ٧١٢هـ).

٣٥- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان

و.إ. ليفي بروفنسال)، ط٥، بيروت: دار الثقافة، ١٩٩٨م.

٣٦- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين - (تحقيق: إبراهيم

الكتاني وآخرون، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٥م.

الفرناطي: محمد عبدالرحيم القيسي (ت ٥٦٥ هـ).

٣٧- المغرب عن بعض عجائب المغرب، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٩ م.

ابن القرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد بن نصير (ت ٤٠٣ هـ).

٣٨- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، (تحقيق: عزت العطار الحسيني)، ط ٢،

القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨ م.

ابن القطان: أبو علي حسن بن علي بن محمد بن عبدالملك التاجي (ت منتصف القرن السابع الهجري).

٣٩- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، (تحقيق: محمود مكّي)، بيروت:

دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٠ م.

الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي (ت ٧٦٤ هـ).

٤٠- فوات الوفيات، (تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود)،

ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠ م.

ابن الكردبوس: أبو مروان بن عبدالملك بن قاسم (ت ٥٧٥ هـ).

٤١- تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، (تحقيق: محمد مختار

العبادي)، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٧١.

مجهول.

٤٢- الحلل الموشية في ذكر الأخبار والمراكشية، (تحقيق: سهيل زكار وعبدالقادر زمامة)،

الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط ١، ١٩٧٩ م.

المراكشي: عبدالواحد بن علي (ت ٥٦٤٧ هـ).

٤٣- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (وضع حواشيه: خليل عمران المنصور)، ط ١،

بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م.

المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت ٥١٠٤١هـ).

٤٤- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (تحقيق: مصطفى السقا وآخرون)،
القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، نشر صندوق إحياء التراث
الإسلامي، ١٩٣٩م.

٤٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب،
(تحقيق: إحسان عباس)، ط ١، بيروت: دار صادر ١٩٦٨م، ١٩٩٧م.
الناصرى: أبو العباس أحمد بن خالد.

٤٦- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، (تحقيق: جعفر ومحمد العامري)، الدار
البيضاء: دار الكتاب، ١٩٩٧م.

أبو الوليد الحميري: إسماعيل بن محمد بن عامر (ت ٤٤٠هـ).

٤٧- البديع في فصل الربيع، (حققه وقدم له علي إبراهيم كردي)، دمشق: دار سعد
الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٧م.

ثالثاً: الدوريات:

● الفاسي: محمد.

١- الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البيئة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية،
ع ٣، س ١، محرم ١٣٨٢م، يولية ١٩٦٢، ص ٣٥.

انتهى،،،،،
